

الفصل السابع  
البيئة الطبيعية وخصائص  
شعر الأطلال

obeikandi.com

## الفصل السابع البيئة الطبيعية وخصائص شعر الأطلال

الشعر شاهد حقيقى حى على تأثر مبدعه بأحداث عصره، وصور بيئته الزمانية والمكانية، فالشاعر لم يكن محايداً أو منعزلاً عن واقعة الطبيعى والاجتماعى والتاريخى.

فقد كان الشعر عند العرب ديوانهم ومجمع أخبارهم ولم يكن لهم علم أصح منه. فقد دلل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب.

ولهذا قيل: إن الشعر الجاهلى " لم يَسْمُ إلى الذروة العالية التى بلغها إلا لكونه تنفسياً صادقاً وملتهباً وتصويراً لبيئة الجاهليين"<sup>(1)</sup>.

فالشاعر الجاهلى فى رؤيته الفنية ولغته الشعرية عالم بالبيئة الواقعية الصامته والمتحركة براً وبحراً مدركاً لتأثير ملامحها بدقة لا يرتقى إليها غيره، ويعبر عنها بعاطفة لا يملكها غيره.

فالشعر الجاهلى بهذا المفهوم وثيقة جمالية أولاً. ووثيقة اجتماعية وتاريخية وجغرافية وطبيعية ثانياً. ولذلك أصبحت القصيدة الشعرية شاهداً يحكى أبعاده تلك ويصبح الشاعر المبدع الخلاق لهذا الشاهد المؤثر. فهو شاهد لا يستغنى عنه الدارسون فى مجالات البحث العلمى كلها، وفى مقدمتها دراسة البيئة الطبيعية. ولهذا كان الشعر الجاهلى مادة أصلية لمعرفة معالم البيئة الطبيعية وتشكل فى ضوءه دراسة فى الأدب الجغرافى والطبيعى والتاريخى. فنحن ننقل بواسطته وحى البيئة الصامته والمتحركة.

فالأدب الجغرافى والتاريخى كان موضع اهتمام الكثير من الباحثين

(1) راجع الشعر الجاهلى، منهج فى دراسته وتقويمه د. محمد النويهي، ص25 ومابعدها.

وكان - أيضاً - موضع اهتمام العلماء القدامى. كالمهزاني في " صفة جزيرة العرب "، وياقوت الحموي في " معجم البلدان "، و أبي عبيد البكري في " معجم ما استعجم " وغيرهم وفضلاً عن ذلك كله فقد ترددت أصداء الحديث عن البيئة الطبيعية والجغرافية في الكثير من الدراسات قديماً وحديثاً.

### أهمية البيئة الطبيعية:

إن دراسة البيئة في الشعر تعد من أصعب الدراسات الإنسانية، لأن الشعر بالدرجة الأولى صورة فنية جمالية، ولأن تلك البيئة الصامتة والمتحركة لم تعد كما كانت عليه في ظروفها الزمانية والمكانية. والمتأمل في أشعار الجاهليين يرى نفسه أمام مادة عظيمة كماً ونوعاً صدحت بالحديث عن البيئة في فلواتها، ووديانها وجبالها وسهولها ونباتها وشجرها ومياهها، ورياحها، وحيواناتها الأليف والوحشي، براً وبحراً، وترتشف من هذه المادة دفقاً من الإيحاء الفكري والاجتماعي والعاطفي.

فالبيئة هيمنت على مشاعر العربي وأفكاره وتدخلت في تكوينها وصياغتها حسب ما تقتضيه ودفعت به إلى حياة تتسق مع ما تفرضه عليه. فكان منفعلاً بها وعنهما يصدر في كل شيء. ومن هنا وجدنا الشعر الجاهلي في بلاد العرب كلها يشترك في جملة من الظواهر ليست متماثلة مع الشعوب الأخرى في الشكل والمضمون.

ولا ينكر أهمية أثر البيئة الطبيعية إلا معاند أو مستكبر فالجاهلي رسخ حدود عاداته وقيمه، وربما عواطفه في إطار ما ألفه من

ضروب البيئة الطبيعية ورسماها فى لغة تصويرية موحية بأصولها ، ومتلونة بذاته فى وقت ، ومعبرة عن تجربته الثقافية والاجتماعية والعاطفية.

### ظاهرة النجعة:

لعل أهم ظاهرة فرضتها البيئة الطبيعية على حياة العرب ظاهرة النجعة وكانوا ينتقلون من محاضرهم التى اتخذوها وطناً لهم إلى منازل بالبادية تسعة أشهر طلباً للكلأ والماء وكانت رحلتهم تبدأ نحو الرابع عشر من آب (أغسطس) ، ولا يرجعون إلا بسقوط نوء الهقعة لتسع خلت من حزيران (يونيو)<sup>(1)</sup>.

وقد كانت القبائل العربية تنزل فى تلك المناجع فى أخلاط شتى حتى صار لفظ الخليط فى الشعر الجاهلى علماً لذلك وقد رده الكثير من شعرائهم.

يقول عبيد بن الأبرص:<sup>(2)</sup>

بان الخليط الألى شاقوك إذ شحطوا

وفى الحدوج مهاً أعناقها عُيُطُ

ويقول بشر بن أبى خازم:<sup>(3)</sup>

بان الخليط ولم يوفوا بما عهدوا

وزدوك اشتيقا آية عبروا

ويقول المسيب بن علس:<sup>(4)</sup>

(1) الأنواء لابن قتيبة، ص 100 : 104.

(2) ديوان عبيد بن الأبرص، ص 83.

(3) ديوان بشر بن أبى خازم، ص 54.

(4) شعراء النصرانية للويس شيخو، ج 3، ص 354.

بان الخليط وُرْفَعُ الخرق

ففؤاده فى الحى معتلق

ويقول زهير: (1)

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا

وزودوك اشتياقاً أية سلكوا

ويقول . أيضاً : (2)

إن الخليط أجدُّ البين فانفرقا

وُعَلِقَ القلب من أسماء وما علق

ويقول بشامة بن الغدير: (2)

إن الخليط أجدوا البين فانجردوا

وأخلفوك عدى الأمر الذى وعدوا

والخليط: الصديق المخالط أو القوم الذين أمرهم واحد وبينهم ألفة، وقد كثر ذكره فى شعر العرب، وإنما كثر ذلك فى أشعارهم لأنهم كانوا ينتجعون أيام الكلا، فتجتمع قبائل شتى فى مكان واحد. فتقع بينهم ألفة، فإذا افترقوا ورجعوا إلى أوطانهم ساءهم ذلك فقد يكون ذلك عادة من عاداتهم أو هو سلوك اجتماعى يتبعونه فى مثل هذه المواقف من حياتهم.

وتظل المقدمة الطللية أكثر مقاطع القصيدة الجاهلية دلالة على مدى تأثير البيئة البدوية أو حياة التبدى فى أصحابها، وبرز هذا التأثير واضحاً فى وحدة العادات والتقاليد والقيم واللغة والثقافة والمشاعر.

(1) شرح شعر زهير، ص127.

(2) شرح شعر زهير، ص38.

(3) لسان العرب لابن منظور، مادة "خلط".

فكان القلق من همّ الحِلِّ والارتحال هماً عاماً للجميع فى أنحاء البلاد، ولعل المثقب العبدى من أحسن من تحدث عنه فى قوله:

إذا ما قمت أرحلها بليل      تأوه آهه الرجل الحزين

تقول إذا درأت لها وضيئى      أهذا دينه أبداً وديني؟!

أكل الدهر حَلًّا وارتحال      أما يبقى على وما يقيني؟<sup>(1)</sup>

لقد أبدع المثقب أيما إبداع حين جعل ناقته تكابد المعاناة القاسية من الارتحال ويستثيرها الحزن ويستبد بها فى كل مرة تشد الرحال إلى مناجع جديدة فتدرة المياه وقلة الموارد ما تركا لها طمأنينة. ولا راحة تستظل بها لفترة طويلة، ولهذا كان قلقها الدائم.

وظاهرة النجعة فرضت على القبائل العربية قانون القوة، فاحتل عندها المرتبة الأولى على الصعيد الفردى والاجتماعى، وقلة الموارد الطبيعية والمائية أباح فى شريعتهم الغزو والسلب واقتنصوا بذلك ومن هذا انتقل الصراع من أجل البقاء إلى حياة البشر. بعد أن كان مقتصرًا على الطبيعة الحية.

وأرخ الشعر الجاهلى لهذا الصراع حول المناجع والمنازل وإن كانت القبائل قد عرفت نمطاً من المواطن الخاصة بها، ومثل هذا وجدناه فى أشعارهم، فهذا رجل من قبيلة عبد القيس التى استوطنت البحرين وعمان يحدثنا عن مظاهر فروسيته التى جعلته ينتصر على خصمه، ولو جبن أو ضعف لنال منه خصمه فقال:

(1) المفضليات، ص 291، 292.

فلم أكل ولم أجبن ولكن      يمت بها أبا صخر بن عمرو  
شككت مجامع الأوصال منه      بنافذة على دهش وذغر  
تركت الرمح يبرق فى صلاه      كأن سنانه خرطوم نسر<sup>(1)</sup>

أما المفضل النكرى فلم يكتف بتصوير ثبات قومه وشجاعتهم وإنما رسم صورة مماثلة لأعدائهم، وحين أكد فروسية هؤلاء كان يمعن فى إكبار ما فعله قومه وافتخاره بنصرهم على ند قوى وشديد فصور كثرة الجيش واندفاعه مشبهاً إياه بالبرد الكثيف العظيم المنحدر من السماء، وكأن قومه سيلاً جارفاً يغمر جنبات واد كبير فقال:

فانك لو رأيت غداة جننا      ببطن أثال ضاحية نسوق

فجاؤوا عارضا بردا وجننا      كسيل العرض ضاق به الطريق  
مشينا شطرهم ومشوا إلينا      وقلنا: اليوم ما تُقضى الحقوق<sup>(2)</sup>

فالعرض واد مشهور فى اليمامة، وصورته أيام الشتاء قفزت إلى مخيلة الشاعر ليظهر وطء قومه فى أعدائهم. والخيل أداة الفارس الأولى، ولهذا ظهرت وجهاً من وجوه الصراع فنسب العربى فعله إليها، وهى وجه آخر من وجوه البيئة الجاهلية وقيمتها.. وهذا ما عرض له أحد شعراء عبد القيس.. فنقل لنا صورة بديعة لفرسه قائلاً:

(1) المصدر السابق، ص71.  
(2) الأصمعيات، ص200، 201.

رميتهم بوجرة إذ تواصلوا .. ليرموا نحرها كثبا ونحري  
إذا نفذتهم كرت عليهم .. كأن فلوها فيهم وبكري<sup>(1)</sup>

فالخيل حصن العربى ودرعه، يحتمى به من ضربات السيوف  
وطعنات الرماح.. ولهذا اختار منها الأصل العتيق وصنع له شجرة  
أنساب، وكرمه على غيره، ولا عيب عنده أن يؤثره على نفسه وأهله فى  
أوقات العسرة بالرعاية واللين.. وعليها تطلب الثارات والرزق، ولهذا  
كانت العرب يهنئ بعضها بعضاً.

ولو تأمل أحدنا الشواهد الشعرية السابقة ونظائرها فى الشعر  
الجاهلى لتأكد له أن الشعراء رسموا خارطة جغرافية لمواضع كثيرة من  
أرضهم.. فهم يحركون الجيش من موضع إلى آخر، ويعرضون لما جرى  
فيه من أحداث وأيام.

### بيئة منطقة الخليج :

امتزجت البيئة الطبيعية لمنطقة الخليج براً وبحراً بوجودان أبنائها،  
وظهرت بقوة فى حياتهم وفنهم أينما توجهوا بل أنهم عشقوها على  
قسوتها حراً أو برداً وريحاً.

فمنطقة الخليج العربى تمتد من بحر العرب (اليمن سابقاً) جنوب  
عمان وتتجه شمالاً محاذية الساحل الغربى للخليج العربى حتى تصل  
الأبلة فى جنوب البصرة من العراق، وتشتمل على قسمين: الأول يشكل  
عمان (عمان والإمارات العربية المتحدة - عدا أبو ظبى) فهى تدخل بالقسم  
الثانى (البحرين) وتسمى قديماً (بينونة) فالبحرين تمتد من بينونة حتى

(1) المفضليات، ص70.

سيف كاظمة، وتشكل أبو ظبي وقطر ورمل بيرين والبحرين، والمنطقة الشرقية للملكة العربية السعودية والكويت.

وتتصل المنطقة من الغرب (ابتداء بالجنوب وانتهاء بالشمال) بالربع الخالي ووبار ورمل بيرين والدهناء ثم النفود<sup>(1)</sup>.

وأطلقَ على عمان اسمها هذا قبائل الأزد التي نزلت فيها وكانت منازلهن القديمة في اليمن في وادي مأرب تسمى بهذا، بينما عرفت لدى الفرس باسم مرون، وقد ورد في قول الشاعر<sup>(2)</sup>:

**ومرون يا صاح خير بلاد .. بلاد ذات زرع ونخيل**

أما البحرين فأشهر أسمائها، ويطلق عليها اسم هجر، (باسم قصبته)، والأحساء والخط باسم بعض المواضع فيها، فضلاً عن أن مصطلح الخليج كان معروفاً لدى الجاهليين لمنطقة البحرين، كقول الشاعر عمرو بن ثعلبة الشيباني<sup>(3)</sup>:

**ولو سرتم لى بالخليج لأجلها ركبت بها فوق السفين على البحر**

وظل اسم البحرين أكثر شيوعاً في بلاد العرب يتردد في الشعر الجاهلي، كقول الشاعر عامر بن الطفيل الذي افتخر فيه بانتصار قومه بنى عامر على قبيلة عبد القيس المستقرة في البحرين، ونالوا منها سبياً كثيراً<sup>(4)</sup>:

**وقد نلنا لعبد القيس سبيا .: من البحرين يقتسم اقتساما**

فمنطقة الخليج امتازت بالاتساع والبعد والتنوع في الفلوات

(1) معجم ما استعجم، ج1، ص81، ج2، ص503.

(2) قصص وأخبار جرت في عمان، عبد المنعم عامر، ص25.

(3) اختيارات المفضل الضبي، ج2، ص589.

(4) ديوان عامر بن الطفيل، ص70.

والسهول والوديان والجبال والفرص البحرية ومغاصات اللؤلؤ، واتصفت أرضها بالخصب قياساً بباقي بلاد العرب فازدهرت الزراعة وكثرت الأشجار المثمرة ولا سيما النخيل:<sup>(1)</sup>

وكانت صحار ودبا وتوأم (العين حالياً) من أشهر مراكز عمان، وكل منها تتسم بسمات الازدهار والنهضة المدنية والعمرائية. أما أشهر مراكز البحرين فكانت بينونة (أبو ظبي اليوم) وقطر وهجر والصفاء والمشقر وجواثا وثاج، والجفار (كاظمة). وأهم فرضها البحرية الخط والعقير ودارين والقطيف وجزيرة أوال المعروفة فى عصرنا باسم جزيرة البحرين.. ولها أسماء قديمة أخرى.<sup>(2)</sup>

أما المياه فهى غنية على نحو ما، وقد اشتهرت عدد من العيون فيها، وأهمها عين محلم التى ذكرها الشعراء، وتفصل بين المشقر والصفاء وهما قسبتا هجر، ومحلم بن عبد الله زوج هجر بنت المكفف التى سميت قرية هجر باسمها، ومن ذلك قول بشر بن أبى خازم:

**كأن حدوجهم لما استقلوا .: نخيل محلم فيها ينوع**

وظهرت منطقة الخليج منذ القديم فى الشعر الجاهلى واضحة الحدود والملاح الطبيعية، وبرزت صورتها شامخة تتحدث عن مواقعها وخصوبتها وتجارتها وصناعتها، فالمنطقة يحكم موقعها الجغرافى صلة

(1) الكامل فى التاريخ 197/15، الأزمنة والأمكنة 163/2.

(2) معجم البلدان لياقوت.

الوصل بين بلاد العرب والهند وفارس والحبشة<sup>(1)</sup>.

وهذا كله هياًها لأن تقوم بمهمات لا تضطلع بها غيرها من المناطق، مما جعلها دائماً محط الأنظار التي تتوجه إليها طمعاً في بيئتها الطبيعية الغنية ومنافعها الكثيرة للجيران من فارس وللقبائل العربية التي أدركت فيها خير موطن، ولهذا عرفت كثيراً منها في هجرات متتابة كان أعظمها قبل سنة 309م<sup>(2)</sup>.

ومما يلاحظ على هذه الهجرات أن القبائل العربية تأتيها من اليمن وتهامة والحجاز ثم تتجه شمالاً إلى العراق والشام ومنها ما يتخذ المنطقة مستقراً دائماً له، وفق مبدأ قانون القوة، فالأقوى يطرد الأضعف، ويحل مكانه، وأن بعضها فضل التوجه نحو الشمال كما حدث مع بطون من الأزد وبكر وتغلب<sup>(3)</sup>.

ولعل أشهر من استوطن الخليج قبيلة عبد القيس برمتها، وبتون من الأزد وبكر وتميم كبنى سعد بن زيد، مناة بن تميم، وغيرها كبنى سامة ابن لؤى الغالبي القرشي<sup>(4)</sup>.

وتداخلت سكنى القبائل فيما بينها، وتارة تكون المنازل دولة بينها في عمان والبحرين.... ففى بينونة وقطر - مثلاً - شاركت بطون من عبد القيس (كالدليل وعامر بن الحارث ومحارب بن عمرو) بنى سعد

(1) المحبر 265.

(2) المفصل لجواد على، ج1، ص566 - 569.

(3) العقد الفريد، ج3، ص29 - 63.

(4) الاشتقاق 324، 325.

من تميم، وتميم اللات من الأزد<sup>(1)</sup>.

ولو تعقبنا صور ذلك فى الشعر الجاهلى لوقعنا على جملة منها  
فى إطار أحاديث الشعراء وأغراضهم كقول الأعشى:<sup>(2)</sup>

فان تمنعوا منا المشقر والصفاً

فأنا وجدنا الخط جماً نخيلها

وإن لنا دُرّى فكل عشية

يُحط إلينا خمرها وخميلها

وهذا عمرو بن أسود العبسى يخبرنا أن البحرين، وقصباتها لم  
تكن خالصة لقبيلة واحدة قبل الإسلام<sup>(3)</sup>، فقال يفتخر بانتصار قومه  
عبدالقيس على إياد وإخراجها من هجر، وإبعاد بكر عن منازلها:  
شحطنا إيادا عن وقاع وقلصت .. ويكرا نفيينا عن حياض المشقر  
وروى لنا المسيب بن علس قصة استيطان بنى سامة بن لؤى فى  
عمان وكانت الأزد أول من نزلها، فقال:<sup>(4)</sup>

فلما أتى بلداً سره به مرتع وبه معرب

وحصن حصين لأبنائهم وريف لإبلهم مخصب

ومن هنا يصبح لزاماً علينا التوقف عند صورة البيئة الطبيعية  
البرية والبحرية، الصامته منها والمتحركة، كما صورها الشعراء

(1) الكامل لابن الأثير، ج1، ص223، 378.

(2) ديوان الأعشى قصيدة 23، ص227.

(3) المعارف لابن قتيبة، ص93: 95.

(4) معجم ما استعجم، ج1، ص47: 49. وراجع أيضاً شعراء النصرانية للويس شيخو،  
ج3/355.

الجاهليون، وعرضوها فى طرائفهم الملية لغاياتهم، علماً بأن المقدمات  
الطللية ومشاهد الصحراء وحيوان الوحش احتفلت أياً احتفال فى  
عرض تلك الصور على مساحة الشعر كله.

#### أ - البيئة الصامته :

اتضح لنا مما تقدم أهمية البيئة الطبيعية فى الحياة والفن،  
وبرزت بيئة منطقة الخليج العربى بالتنوع والاتساع وشهدت أرضها حياة  
النجعة ونمطاً من المدينة فى آن معاً.

وتركت هذه البيئة آثارها الواضحة فى أبناء الخليج وفى  
طليعتهم الشعراء، فحمل هؤلاء حساً مرهفاً وهم يتحدثون عن الطبيعة  
الصامته، والمتحركة بجبالها ووديانها وسهولها وفلواتها وحرها وقرها  
ومطرها ومواقعها ومنافعها وشجرها ونباتاتها... فأينما لاحت لهم صورة  
ممتزجة بحياتهم ومشاعرهم جعلوها مادة لغتهم فتأثروا وآثروا.

وكذا كان الشاعر الجاهلى يتغنى ببيئته الطبيعية ويسوق ذلك  
فى إطار هدفه الذى يسعى إليه فى موضوعات قصيدته، ولهذا حفلت  
المقدمات الطللية ومشاهد الرحلة والحيوان خاصة بصور كثيرة ومثيرة  
للبيئة الطبيعية، فهذا المثقب العبدى يحدثنا عن مشهد الرحلة بنشوة  
عامرة بالشاعر فيقول:

لِمَنْ ظَفُنْ تُطَالِعُ مِنْ صُبَيْبٍ      فَمَا خَرَجْتَ مِنَ الْوَادِي لِحِينِ  
مَرْزَنْ عَلَى شَرَافِ فِذَاتِ رِجْلِ      وَنَكَّبَنَّ الدَّرَانِحَ بِالْيَمِينِ

## عَلَوْنَ رِبَاوَةَ وَهَبَطْنَ غَيْباً فَلَمْ يَرْجِعْنَ قَائِلَةً لِحَيْنٍ (1)

فالشاعر يسوق فى سرد تتبعى رحلة الطعائن من موضع إلى موضع وهى تصعد ربوة أو تغيب فى واد فيخلع قلبه من جنبه ظناً منه أنه لم يعد يراها... فعينه تظل ترصد مرورها فى (ضبيب، وشراف، وذات رجل، والذرائح) وهى مواضع لبكر بين كاظمة والبحرين. فهو يمزج بين الأثر الفنى والتعبير عن رحلة صاحبته فى مواضع محددة، وكأن الفن صورة للواقع النفسى والجغرافى وقد يختلف عنه ابن بجدته الممزق العبدى فى لوحته الفنية العاطفية، حين توجه إلى النعمان بن المنذر... فالحديث عن المواضع اتسع ليشمل بعض المناطق المجاورة للحيرة كالرحى وقراقر، إذ مرت فيها الطعائن حاملة هموم الشاعر من مناطق الخليج العربى التى تعانى رسف عامل النعمان وجهالاته، فقال:

صحا عن تصابيه الفؤاد المشوق	وحان من الحى الجميع تفرق
وأصبح لا يشفى غليل فؤاده	قطار السحاب والرَّحيق المروق
لذن شال أحداج القطين غديّة	على جلّهة الوادى مع الصبح توسق
تطالغ ما بيّن الرّجى فقراقر	عليهن سربال السراب يُرقرق

فالممزق يربط بين الخوف الذى يمكن من تصدع الشمل بعد النجعة، والخوف الذى جعله عامل النعمان بن المنذر... وهذا هو الجديد فى الحديث عن الطعائن لدى شعراء المنطقة. فالشاعر رسم لوحة مثيرة

(1) المفضليات، ص288، البيت الثالث، ص289.

لرحلة الظعائن منذ أن رمت أحداجها وتوجهت مع انبلاج الصباح إلى صفحة الوادى لتصل ساعة الضحى إلى الرحى وقراقرو والسراب يتلألاً، وكانت حركتها مجبولة بحركة النفس المرعوبة سواء من انقطاع الغيث، وتصوح النبات وجفاف الغدران أو من الظلم الذى روعه عامل النعمان بن المنذر على البحرين.. فأشاد بضلاله ورعونته وجعله نشر فساداً كبيراً. وإن لم يصلح النعمان ذلك، فإن خيل عبد القيس ستتجه إلى حيث ينبغى لها الاتجاه لقلع الظلم والفساد. فقال الممزق:

**فجالت على أجوازاها الخيل بالقنا**

**تواضع من حَزْنَى جُدود وتمرقُ**

**فَمَنْ مُبْلَغُ النِّعمانَ أَنَّ أُسَيْدًا**

**على العين تعتاد الصفا وَتَمَرِقُ<sup>(1)</sup>**

إن الحديث عن الرحلة كان غنياً بذكر المواضع والأحداث التى تجرى فيها، والهم أو القلق عند شعراء الخليج أصبح مزدوجاً، وقد كان منفرداً لدى شعراء الجاهلية.

فالمفضل النُكْرَى لم يكتف بالحديث الفنى الممتع والمثير لحركة الأحداث، ونقل المعركة من منازل قومه (فى عمان والخط وهجر والعقير) وإنما نقلها إلى ديار بنى سعد، مثلما نقل عامر بن الطفيل العامرى المعركة إلى حيث عبد القيس فى المرداء من هجر. فقال المفضل:

**كَأَنَّ النَّبْلَ بَيْنَهُمْ جَراد ----- نَكْفِيهِ شَامِيَةَ حَرِي**

(1) المفضليات، ص 433، 434.

لَقِينَا الْجَهْمَ تُعَلِّبَةَ بِنِ سَيْرٍ      لَدَى الْأَعْلَامِ مِنْ تَلَعَاتِ طِفْلِ  
أَضْرَبِمِنْ يُجَمِّعُ أَوْ يَسُوقُ      وَمِنْهُمْ مَنْ أَضْجَ بِهِ الْفُرُوقُ<sup>(1)</sup>

وعرض للفروق (وهو واد بين اليمامة والبحرين) ذكره عنتره فى حديثه عن معركة جرت فيه<sup>(2)</sup>، وينقلنا النص السابق إلى وجه آخر من وجوه البيئة الطبيعية وهو المناخ أو ما يعرف بالطقس، فالجزيرة العربية ولا سيما المناطق القريبة من الخليج عُرِفَتْ بالحر والقر، وراقب أهلها الرياح الكبرى الشمال والجنوب والصبيا والديبور. وأطلق العرب على شهرى الشتاء الباردین (ملحان وشيبان)(ناجرا)، وجعلوا (الشتاء للبرد وقتاً، والقيظ للحر وقتاً)<sup>(3)</sup>، فالقيظ يأتى بالهاجرة التى تسفع الوجوه وتكوى الجباه كما يستمد من قول المثقب:

فقلت لبعضهن: وَشُدَّ رَحْلِي .: لَهَاجِرَةٌ نَصَبَتْ لَهَا جَبِينِي  
لَعَلَّكَ إِنْ صرمت الحبل مَنَى .: كَذَاكَ أَكُونُ مَصْحَبَتِي قَرُونِي<sup>(3)</sup>

وبهذا تحدث الشعراء عن الحر والقر والمطر والجفاف فى معرض وصف الأطلال والرحلة وفى صور أخرى كثيرة.. ففى القيظ يقل الغذاء وينسب الماء، وتعرض القبائل للغزو والنهب.. لهذا كانت الخيل حصن العربي، وهكذا ابن الخليج أحرص على خيله لأنه سيكون مطمئناً فى بيئته الطبيعية لغيره، وكان يؤثرها باللبن ويخصص إبلا لشربها، ولو

(1) الأصمعيات، ص201.

(2) شرح ديوان عنتره، ص215، 216.

(3) الأنواء لابن قتيبة، ص162، 18، 109.

(4) المفضليات، ص289، 290.

بقى وبقيت أسرته من دونه كما يقول يزيد بن الحذاق الشني: (1)

قصرنا عليها بالمقيظ لِقَاحًا .: رِبَاعِيَّةً وَبَازِلًا وَسَدِيْسًا

وكذلك كان دأبه فى الشتاء، فهو يتعهد خيله بالرعاية والتدريب، فلم يتغافل عنها البتة كقول الشاعر من القصيدة السابقة:

وَدَاوَيْتُهَا حَتَّى شَتَّتْ حَبَشِيَّةً .: كَأَنَّ عَلَيْهَا سُنْدُسًا وَسُدُوسًا

فالحديث عن الحر والقر لم يكن طويلاً ولا مقصوداً لذاته على عكس ما رأيناه عند الشنفرى مثلاً، وكذلك الوصف الذى ذكر فيه المطر والبرق والرعد لم يكن بالمستوى الفنى لدى بعض الجاهليين كما مرئ القيس مثلاً.

أما الحديث عن الليل فيكاد يكون منعماً فى شعر أهل الخليج، ولا يقاس بأى حال بما كان لدى امرئ القيس، والنايغة وغيرهما.

وعلى الرغم من ذلك لانعدام وجود صورة هنا أو هناك لذلك كله، فثعلبة بن عمرو يصور لنا درعاً متلاًئمة فيقتنص من صورة الغدير الذى ضربته الريح مثلاً لذلك، ولكنه أضاف صورة أخرى إليها حين جعل السماء تدفع بشآبيب الغيث فى وقت الصيف، وقد أبرز لآلى الماء هبوب ريح عليه، فقال:

بيضاء مثل النهى رِيحٌ وَمَدَّةٌ .: شَائِبِبٌ غَيْثٌ يَخْفِشُ الْأَكْمَ صَائِفٌ (2)

فهذه صورة مركبة ونادرة فى ساعات الصيف الحار، فسحاب

(1) المصدر السابق، ص 297.

(2) المفضليات، ص 282.

الصيف مشهور لدى الجاهليين بالكذب لأنه يتراكم دون أن يغيث أحداً، ورياحه شديدة العصف تثير العجاج والغبار وتذهب فى كل وجه، وقد استمد المثقب العبدى من هذه الصورة الطبيعية صورة ما جرى بينه وبين صاحبتة، فذهب ما بينهما من مودة فقال:

**فَلَا تَعْدِي مَوَاعِدَ كاذِبَاتٍ .: تَمُرُّ بِهَا رِيَا حِ الصَّيْفِ دُونِي<sup>(1)</sup>**

ومما يلاحظ من شعر أهل الخليج فى وصفهم للمطر والريح والسحاب والبرق والغدارن. أن هذا الوصف وقع أكثره فى المقدمات الطليية، وامتزج بوصفهم للأشجار والنباتات والأزهار التى شهدتها منطقة الخليج.

وجروا فى هذه الطرائق على عادة شعراء الجاهلية غالباً فى إطار التعبير عن حياتهم ومشاعرهم، ولم تكن المقدمات وحدها تتسع للحديث عن البيئة الطبيعية، فأينما وجد الشعراء صورها الملبية لحاجاتهم النفسية وغاياتهم اقتنصوا منها ما يبعث التأثير والإيضاح.

وحظيت صورة الأشجار ولا سيما النخيل بأكثر تلك الصور وإن وقعنا على جملة من الصور المبدعة للنباتات والأزهار فالمفضل النكرى لم يكن ليغفل عن صورة الحريق الذى يشب فى أجمة من القصب، وقفزت هذه الصورة إلى مخيلته حين أراد التحدث عن زحف الجيش وما يصدره من أصوات فى حركته وقعقة سلاحه، فقال:<sup>(2)</sup>

**كأن هزينا يوم التقينا .. هزير أباءة فيها حريق**

(1) المصدر السابق، ص288.

(2) الأصمعيات، ص202.

أما شجرة النخيل فكانت من أشهر أشجار الجزيرة العربية عامة ومنطقة الخليج خاصة.. فضرب المثل بنخل عمان وهجر، وضرب بها الأمثال كقول العرب " كمستبضع التمر إلى هجر "، وقد يطلق على البحرين كلها اسم هجر<sup>(1)</sup>.

فشجر النخيل تشكل الشجرة الأولى فى رياض الخليج وحدائقها، وتمثل أهمية خاصة فى حياة أهلها وصور شعرائها فمن تمرها صنعوا الشراب الطيب الذى ضاهى العسل، ومن خوصها صنعوا الخصف الذى يحفظ الثمر، وجعلوا نواه علفاً للدواب، وأطلقوا عليه السوادى والرضيح، وعرض له المثقب العبدى حين صور سنام ناقته المختزن والقوى فقال:

كَسَاهَا نَا مِكَ قَرْدًا عَلَيْهَا .. سَوَادَى الرُّضِيحِ مِنَ اللَّجِينِ<sup>(2)</sup>

وعبر إعرابى نهدي من أبناء عمان عن أهمية تلك الشجرة وفائدتها فقال: "حملها غذاء، وسعفها ضياء، وجذعها بناء، وكربها صلاء، وليفاء رشاء، وخوصها وعاء وقروها إناء"<sup>(3)</sup>.

وشجرة النخيل كانت مصدراً ثرياً لشعراء الجاهلية فى صورهم الشعرية المتعددة فى جذعها وعناقيدها، وكذلك كانت لشعراء منطقة الخليج كقول المفضل النكرى فى وصف لمة أحد الفرسان، أو وصفه لفرس ابن قران ولولاها لما نجا:

(1) فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد البكرى، ص 413.

(2) المفضليات، ص 290.

(3) الأمالى، ج 3، ص 16.

فَتَلْنَا الْحَارِثَ الْوَضَّاحَ مِنْهُمْ .: فَخَرَّ كَأَنَّ لِمَتَّهُ الْعُدُوقُ<sup>(1)</sup>

ثم قال فى فرس ابن قران واصفاً عنقها:

تَشُقُّ الْأَرْضَ سَائِلَةَ الدُّنَابَى .: وَهَادِيهَا كَأَنَّ جُدْعَ سَحُوقُ

وشجرة النخيل لم تكن منفردة فى منطقة الخليج، فقد زيتها أشجار مثمرة غير قليلة من الموز والتين والرمان، التى تميزت بها عمان، وزاحمها أشجار كثيرة فى عمان والبحرين كالسدر والضال والتبغ والغرب والرمث والدوم والعضاء والعفار والمرخ.

فمنطقة الخليج تميزت ببيئة طبيعية غنية بالحدائق والرياض وبأشجارها المتنوعة وخيراتها الكثيرة، وما أفاء الله عليها من وفرة المياه، مما استدعى حفر الآبار وشق القنوات للزراعة وروى الإنسان والحيوان، كماء الستار وكاظمة ونطاع.

ومهما يكن احتفاء شعراء الخليج بالحديث عن البيئة الطبيعية لديهم فإنه يتضاءل أمام تنوعها وغناها وكثرتها وأمام ما وقعنا عليه فى بعض أشعار الجاهليين.

والمفضل النكرى واحد من شعراء الخليج الذى ضرب النبع مثلاً للقوة والشدة، بينما جعل السدر علامة للضعف والوهن وكنى به عن أعدائه بالقياس إلى قومه فقال:

وجدنا السدر خواراً ضعيفاً .: وكان النبع منبته وثيق

فالببيت يتضمن تصريحاً واضحاً على خبرته بهذا النوع من الشجر

(1) الأصمعيات، ص202.

المعروف فى منطقة الخليج، ولكن حديث الممزق العبدى أكثر دقة لربطه  
شجر الرمث والغضا بكلمة بلادنا، فى تصويره لجيش النعمان بن المنذر  
فى قوله: (1)

فَلَمَّا أَتَى مِنْ دُونِهَا الرِّمْتُ وَالغَضَا  
وَلَا حَتَّ لَنَا نَارَ الْفَرِيقَيْنِ تَبْرُقُ  
فَوَجَّهَهَا عَرَبِيَّةً عَن بِلَادِنَا  
وَوَدَّ الَّذِينَ حَوَّلْنَا لَوْ تُشْرِقُ

أما أشجار الضال والسمر فقد ذكرها الشعراء غالباً فى إطار  
تصوير أعناق الغزلان وتشبيهه أعناق صواحباتهم بها، ويرسمون صورة  
الغزال أو الطيبة وهى تحاول مد عنقها، لتلتقط أنضر الورق وأصفاه،  
فتتكشف محاسن العنق وطوله كقول المثقب العبدى: (2)

كَغَزْلَانٍ خَذَلْنَ بَدَاتِ ضَالٍ .: تَتَّوَشُّ الدَّانِيَاتِ مِنَ الغُصُونِ

ولو أعاد المرء النظر فى الصورة السابقة لوجدها تأخذ عناصرها  
من البيئة الطبيعية الصامتة والمتحركة.

أما شجر العفار والمرخ فمن الأشجار التى عرفتها منطقة الخليج  
وما ولاها، وذكرها الأعشى فى شعره (3)، صراحة واستعملت فى  
الكتابة، ورأينا أحد شعراء الخليج يعرض لمسألة الكتابة، وما ظهر من  
آثارها على صفحة، وشبه آثار الديار بها دون أن يصرح بذكر العفار

(1) المفضليات، ص 433.

(2) المصدر السابق، ص 288.

(3) ديوان الأعشى، ص 89.

أما مواضع ذكر النباتات والأزهار وإن جاء غالباً فى المقدمات الطللية غير أن بقية موضوعات القصيدة تلونت بأشكال الصور التى اختزنت ملامح النباتية فى أساليب متباينة ككتابين الهدف لدى الشعراء. وقد ورد ذكر النباتات والأزهار مقترناً بذكر الأشجار والمواضع ومشهد الحيوان ووصف الأطلال الدارسة بعد فراق أهلها وتوالى العهود عليها زمناً ومطراً كقول ثعلبة بن عمرو:<sup>(2)</sup>

**لمن دمن كأنهن صحائف .: قفار خلا منها الكتيب فواحف  
فما أحدثت فيها العهود كأنما .: تلعب بالسمان فيها الزخارف**

فالأطلال أتى عليها عهود ممطرة تتزين بألوان بهية من الزهر، ففعلت فيها ما يفعله صاحب الأصباغ فى الثياب والبيوت حين يوشىها. وبهذا المنطق الشعرى كان يعبر عن البيئة الطبيعية وعن طبيعة الحياة التى يعيشها الجاهليون.. فالصياغة أصبحت مصدراً يتكى عليه الشعراء فى بيان جمال الصورة الشعرية وأثرها، والصياغة مما شهدته الحواضر أكثر مما شهدته البادية.

وفى صميم هذا التشكيل الفنى التصويرى نقع على البعد الزمانى ممثلاً بالعهود صيفاً وشتاءً، وكرهما مرة بعد مرة وعلى البعد المكانى ممثلاً بالأطلال (الكتيب، واحف)، فيرتبط البعدان مثلما يتحد الزمن فى مصطلح العهود، وهذا كله أدى إلى التشكيل الجمالى الموحى والمعبر بأقل

(1) المفضليات، ص 281.

(1) المفضليات، ص 281.

الألفاظ وهذا ما نجده فى قول يزيد بن الحذاق الشنى حيث وصف فرسه  
فقال: (1)

وداويتها حتى شتت حبشية .: كأن عليها سندساً وسدوساً

فاضت كتيس الربل تتزو إذا نزت .: على رِبَذَاتٍ يَغْتَلِينِ حُنُوسَا

فالشاعر يرسم لوحة جميلة للأرض التى غذاها مطر الشتاء  
فوشيت بالنبات والأزهار مما يخلب الألباب ويهدش البصر، فجاءت أشبه  
بثوب الديقاج أو الطيلسان الأخضر.

وهكذا تألق فرسه منظراً وقوة بعد أن تعهدا بالرعاية  
والتدريب، ولكى يبرز خفتها ونشاطها نقلنا إلى صورة تيس الربل من  
نبات الصحراء فى آخر الصيف، فتراه يتطاير دون أن يستطيع قابض  
السيطرة عليه.

فالشاهد دل على براعة وذكاء فى شدة الإيجاز للبعد الزماني،  
وفى الجمع بين الطبيعة الحية والصامتة، وفى وصفه البديع لنباتات  
الشتاء ونباتات الصيف.

هكذا رأينا زينة الأرض مصدر إلهام الشعراء فى صورة حتى  
لدى شعراء الجاهلية وشعراء الخليج (2)، وكانوا يمزجون فى عرضها بين  
البيئة البدوية والحضرية والحية والصامتة فى إطار مجازى سواء أكان  
موضوعهم غزلاً أم فخراً ومدحاً أو غير ذلك.

ومهما يكن حجم الحديقة النباتية وأنواع الأزهار التى ذكرها

(1) المصدر السابق، ص297.

(2) الأصمعيات، ص165.

شعراء الخليج فإنها فقيرة بالقياس إلى حديقة الأزهار عند الشعراء الجاهليين، وبخاصة الأعشى الذى تنقل فى البلاد فخير الحدائق واختار منها أحسن الصور الشعرية للأقحوان والريحان والكافور والزنبق والعشرق والعرار والثغام، وغيرها من النباتات والأشجار، واستحق أن يكون شاعر الرياض، ساعده على هذا ما تميزت به قريته منقوحة من خضرة.

ولم تكن البيئة الطبيعية الصامته بأشكالها المتعددة لتحوز اهتمام الشعراء وإنما كانت الطبيعة المتحركة (الحية) مثار ابداعهم واهتمامهم، ومصدراً كبيراً لحياتهم إن لم تكن هى الأصل فى ذلك كله.

#### ب. البيئة المتحركة الحية:

دخلت صورة البيئة المتحركة الحية فى نسيج الحياة والفن لأهل الجاهلية جميعاً، فشكلت أثراً واقعياً وفنياً، وحظيت الإبل والنعام والخيل بأكثرها.

ففى الفن امتزج الواقع الفنى بالواقع النفسى والفكرى للشاعر الذى عاش فى البيئة عاشقاً لها مفضلاً إياها على غيرها ولهذا جعلها مادة للتحريرى الانفعالى تارة ومصدراً لتوليد أفكاره وصوره تارة أخرى، فتراه يقلب صفحات البيئة المتحركة مؤطراً إياها فى سياق لغوى ومعنوى وعاطفى يبعث تأثيراً متصاعداً وعودة إلى الأصل الذى انطلق منه كلما قرأه قارئ أو تلقاه متلق فى أى عصر كان. فالشاعر الجاهلى نقل الواقع

الطبيعى بصياغة تركيبية جديدة تعبر عن الأصل وليست هى الأصل دون أن يقصد إلى تصوير البيئة الطبيعية قصداً، لأنه ما رمى إليه من مشاعر وأفكار كان أبعد من صورة الواقع القريب، فالبيئة الطبيعية أداة ووسيلة لغايات أكبر، ومشاعر أرحب.

ولهذا اختلف التأثر والتأثير زماناً ومكاناً وثقافة وعاطفة، على الرغم من أن المصدر واحد وهو الطبيعة الحية، فالناقة هى الناقة أينما كانت وفى أى زمن ولدت، وهذا لا يمنع تشابه الصور فى الشعر الجاهلى أو طرائقها فى بيئة دون بيئة، والدارس المتمهل لصور الطبيعة المتحركة الحية فى شعر منطقة الخليج يدرك الأثر النفسى والفكر المتباين نوعاً ما عما عرفناه لها فى الشعر الجاهلى وإن تشابهت فى بعض طرائف العرض، وبناء القصيدة.

فهذه الصور تأثرت بطريقة الحياة المدنية التى عرفتها المنطقة، وباختلاف أنماط البيئة الصامتة على نحو من الأنحاء عن بقية مواضع الجزيرة العربية.

وليس من الإنصاف أن نعمم فى الأحكام، فالشاعر الخليجى فى العصر الجاهلى لم يكن منعزلاً عن دائرته الثقافية، والاجتماعية والجغرافية عن الشاعر الجاهلى عامة، مما جعله يقتنص كثيراً من صور الطبيعة المتحركة فى إطار مجازى كغيره من الشعراء على كثرة مزجه بين البادية والحاضرة، فضلاً عن الإشارة إلى أن القبائل التى استوطنت مناطق الخليج العربى وإن شهدت نوعاً من المدنية الزراعية

والصناعية والتجارية لم تستطع أن تفك إصارها من تقاليد الحياة البدوية.

واستطاع شعراء هذه القبائل ومن جاورهم أن ينقلوا بأمانة ودقة وبراعة تفاعلهم الخلاق مع بيئتهم القديمة والجديدة، ونجحوا فى تحميل ناقتهم هم القوم فى طلب النجعة، وهو هم مرعب وقلق قاتل يستمر لدهر طويل، ويلاحق البشر وممتلكاتهم، ولكن الرعب الأعظم والشر المستطير لم يعد يتمثل لهم فى تصدع الشمل وفراق المنازل ونضوب العشب والماء، وإنما غدا له وجه آخر، إنه رسف الظلم الذى يطوق بلادهم وأعناقهم، ظلم ملوك الحيرة الذين تسلطوا على بيئتهم الطبيعية وحياتهم أينما حلوا فى ديار الخليج، والمناذرة كانوا ولاة لملوك الفرس<sup>(1)</sup>.

هكذا استطال الهم وتطور فى مفهوم الشعراء، واستطاعوا أن يرسموا ذلك بشكل موح وممتع ومثير فى تقاليد القصيدة الجاهلية المعروفة، فأبدعوا الواقع الفنى من صميم الواقع الطبيعي، كقول المثقب العبدى<sup>(2)</sup>.

أَجْدِكِ مَا يُدْرِيكِ أَنْ رَبِّ بَلْدَةٍ      إِذَا الشَّمْسُ فِي الْأَيَّامِ طَالَ رَكُودُهَا  
وَصَاحَتْ صَوَادِيحُ النَّهَارِ وَأَعْرَضَتْ      لَوَامِعُ يُطَوَّى رَيْطُهَا وَبُرُودُهَا  
قَطَعَتْ بِفِتْلَاءِ الْيَدَيْنِ ذَرِيْعَةً      يَغُؤَلُ الْبِلَادِ سَوْمَهَا وَبَرِيْدُهَا

(1) طبقات فحول الشعراء، ج1، ص28 - 30. انظر رسالتي فى الماجستير وعنوانها "شعر شعراء الحيرة فى العصر الجاهلى،

دراسة وجمع ما لم يجمع".

(2) المفضليات، ص150.

## على طُرُقٍ عِنْدَ الْأَرَاكِ رِيَّةٍ      تَوَازَى شَرِيمَ الْبَحْرِ وَهُوَ قَعِيدُهَا

فى هذه الأبيات نشعر بمعاناة المثقب من غياب الشمس التى ثبتت فى السماء، وكأنها أبت أن تبرح مكانها، لا يسمع فى جنبات الأرض الجنادب ولا يتألاً لعينيه إلا ظل السراب الذى خالفه ثياباً تطوى فى هذا الصيف اللاهب الذى يعانى منه البشر والحجر توجه راحلاً إلى النعمان بن المنذر، على ناقة قوية صابرة لا تعباً بالحر وعناء الطريق، هدفها أن تصل إلى الملك كى يطلق أسرى عبد القيس شيباً وشباناً.

فالمثقب كان يرسم ملامح الخليج فى موازاة البرمع البحر فى خط سيره إلى الحيرة فيمر بمواضع كثيرة كالأراكة وليصبح سفير قومه لدى النعمان، وكذلك فعل ابن بجدته الممزق العبدى حين توجه إلى عمرو بن هند. فكل منهما يستعطف ممدوحه فى أسلوب طريف بديع، وكل من الملكين يرق للشاعر فيعضو عن قومه، وكل منهما يمرح بطلبه، كما يقول المثقب:<sup>(1)</sup>

## فَأَنْعِمُ أَيْبَتِ اللَّغْنِ، إِنَّكَ أَصْبَحْتَ      لَدَيْكَ لُكَيْزٌ كَهْلُهَا وَوَلِيدُهَا

ونلاحظ مرة أخرى التتبع الدقيق لحركة الرحلة، وهو تتبع معروف لدى الجاهليين وخاصة عند النابغة الذبياني، الذى أجاد فى مدحه واعتذارياته على أن غاية شعراء الخليج مغايرة نوعاً ما... دون أن نعدم بعض الصور الأخرى التى تشابهت فى أساليب الشعراء

(1) المفضليات، المصدر السابق، ص 153.

الجاهليين<sup>(1)</sup>.

ويلوح لنا مما تقدم أن منطقة الخليج كانت دريثة لسهام المناذرة وغيرهم، واتهمت عبد القيس خاصة بالذل والخنوع لهم، كما ورد على لسان المتلمس الضبعى البكري<sup>(2)</sup>.

إِنَّ الْهَوَانَ حَمَارُ الْقَوْمِ يَعْرِفُهُ      وَالْحَرَّ يَنْكِرُهُ وَالرَّسْلَةَ الْأَجْدُ  
كُونُوا كَبِيرًا قَدْ كَانَ أَوْلَكُمْ      وَلَا تَكُونُوا كَعَبْدِ الْقَيْسِ إِذْ قَعَدُوا  
يَعْطُونَ مَا سَأَلُوا وَالْخَطَّ مِنْزَلَهُمْ      كَمَا أَكْبَأَ عَلَى ذِي بَطْنِهِ الْفَهْدُ

ولا شك أن المتلمس ظلم عبد القيس على نحو ما، وخاصة أن هذه القبيلة توزعت من عمان حتى وصلت الأهواز في جنوب العراق وشمال شرق الخليج العربي، فاللبوء بن عبد القيس كانت هناك وبنو شن من عبد القيس انتصروا على قبيلة إياد وأجلوها إلى سواد العراق، ولما انتصروا في بعض المعارك خسروا في الأخرى وهادنوا أمام الأقوى... كبكر تماماً. فعبد القيس تدرك أن حصونها خيلها ولهذا تعدها دائماً للرهان والقتال، ولا أدل على هذا من شهرة "هراوة الأعراب" فقد دخلت الحلية خمس عشرة سنة فجعل الريان بن حويص العبدى سبقها لعبد القيس، كل سنة لبطن.. فقال عبيد بن مرثد راثياً إياه وذاكراً الفرس<sup>(3)</sup>:

سقى جدث الريان كل عشية      من المزن رجاف العشى دلوج  
أقوام لفتيان العشيرة قسوة      لهم منكح من جريها وصبوح

(1) ديوان النابغة، ص36، 94.

(2) شعراء النصرانية للويس شيخو، ج3/343: 344.

(3) الشعر والشعراء، ج1، ص199.

فأمن رأبى مثل الهراوة منكحا إذا بل أعطاف الجياد جروح

فعبد القيس اعتزت بالخيل وأكرمتها وحافظت على شجرة  
أنسابها وهجنوا السلالات العربية إذ ظن بعض منهم أن الخيل الهجنة قد  
تضاهى أو تحازى الخيل العراب<sup>(1)</sup>

وبهذا كله خالطت الخيل حياتهم، وظهرت فى الفن الشعرى  
مساوية لذلك، ومثل هذا عرفناه عند القبائل العربية كلها، فكانت  
إحدى وجوه البيئة الطبيعية الحية فى صور الشعراء الجاهليين، ومن هذا  
قول ثعلبة بن عمرو العبدي<sup>(2)</sup>:

أسماء لم تسألني عن أبيك      والقوم قد كان فيهم خطوب  
إنَّ غريباً . وإن ساءني      أحبُّ حبيبٍ وأدنى قريب  
سأجعل نفسي له جُنَّةً      بشاكي السلاح نهيك أريب  
واهلك مهر أبيك الدوا      ء ليس له من طعام نصيب  
خلا أنهم كلما أوردوا      يضح قعبا عليه ذنوب

فالشاعر يؤثر خيله على نفسه فى الطعام والشراب، ويقوم لها  
درينة يحميها فى الشدائد، وكذلك كان المستوغر بن ربيعة بن كعب  
أحد بنى سعد بن زيد مناة، وهو من المعمرين الذين سكنوا قطر،  
وكان ممن اقتنى الخيل وحبسها للغارة والصيد، وقد آلمه أن يرى فرساً  
له تغرق فى ماء غمر غزير فقال<sup>(3)</sup>:

(1) الأقوال الكافية والفصول الشافية للرسولى، ص332.

(2) المفضليات، ص253.

(3) المعمرن والصاايا، ص13.

ينش الماء فى الربلات منها .: نشيش الرضف فى اللبن الوغير  
فصوت الماء حين اندفع فى جنبات فرسه وأعضائها أصدر صوتاً  
يشبه صوت الماء البارد الذى أضيف إلى اللبن المغلي.

تلك هى أمثلة للبيئة الطبيعية المتحركة من الإبل والخيل.

وقد وردت فى صور أخرى مجازية شتى، وكذلك تفعل فى  
الأنواع الأخرى من صور الحيوان فى منطقة الخليج العربي، فالغاية لدينا  
إبراز هذه الصور دلالة على تنوعها وأهميتها، وعدم خلو المنطقة منها  
سواء كانت فى الحاضرة أم البادية، فشعراء الخليج يمزجون بين  
حيوانات البادية والحاضرة فى صور شعرية مثيرة وممتعة. وفى سياق  
أغراض القصيدة كلها أحياناً أو فى بعضها.. فجمعوا بين الديك من  
حيوانات الحاضرة، والناقة إحدى حيوانات البادية أو بينها وبين الهر،  
وكلاهما يفرعها لعدم ألفتها، فتمضى لطياتها مسرعة، كقول  
الممزق العبدى:<sup>(1)</sup>

وناجية عديت من عند ماجد .: إلى واحد من غير سخطٍ مُفَرَّقِ  
ترى أو تراءى عند معقد غرزا .: تهاويل من أجلاذ هرٍ مطلق

وبقيت للبيئة المتحركة البدوية سلطانها فى أذهان الشعراء  
وصورهم، بل لن تزايل مخيلتهم قط<sup>(2)</sup>، ونشير إلى صورة أخيرة تتحدث  
عن الإبل المسرعة المشبهة بالقط المتجه إلى الماء كسرعة الرماح لشدة  
عطشه، كقول المثقب العبدى:<sup>(3)</sup>

(1) الأسمعيات، ص164، 165.

(2) أمال المرتضى، ج1، ص135.

(3) المفضليات، ص151.

تهالكُ منها في الرخاءِ تهالكاً .: تهالكُ إحدى الجُونِ حانَ ورؤُدها

إن الارتكاس إلى البيئة المتحركة البدوية عند أبناء الخليج يدل على عظمة تأمل ظاهرة التبدى فى نفوسهم حياة وفنا ، وإن كانت بيئتهم لم تغير ملامحها المدنية كثيراً ... على ارتباطها العظيم بالبحر وامتداده على الساحل الغربى والشمالى للخليج العربى.

البيئة البحرية:

كشفت لنا دراسة البيئة البرية الصامتة والمتحركة أن الأثر الفنى ابن بار فى صورته وجوهره للأثر الطبيعى، وأن كل شاعر استمد منه لوحاته المؤثرة والموحية فى إطار أغراضه ومعانيه الكبرى التى اشتمل عليها شعره ولم تكن طريقة التناول للبيئة البحرية لتختلف عن النهج السابق، وإن كان حظها أقل بكثير من سابقتها، علماً أن منطقة الخليج العربى تميزت بالفرض البحرية ومغاصات اللؤلؤ، وصناعة المراكب، فضلاً عن حيواناتها.

وعلى أهمية ذلك لم يبتدع شعراء الخليج صوراً شعرية تفوق ما قاله الشعراء فيها، ولم يكثروا فى الوقوف عندها كما فعل غيرهم، إذا استثنينا مما قاله المثقب العبدى، فى نونيته المشهورة نحظى بحديث طريف عن صناعة السفن ودهانتها وحركتها اللينة السريعة فى الماء مشبها الطعائن بها:<sup>(1)</sup>

وهن كذاك حينَ قطعنَ قُلجاً .: كأن حُمولهنَ على سفين  
يشبهن السفين وهن بُحُتٌ .: عُراضات الأباهر والشؤون

(1) المفضليات، ص288: 291.

----- :-----  
كأن الكور والأنواع منها :. على قرواء ماهرة دهين  
يشق الماء جُوجُؤها ويعلو :. غوارب كل ذى حذب بطين

فالمتقب لم يكن أول من رسم ملامح البيئة البحرية فى الشعر  
الجاهلي، وربط بينها وبين البيئة البرية والبدوية فقد ذكرها امرؤ القيس،  
وطرفه، والمرقش الأكبر وغيرهم ممن تحدث عن الخليج أو عن تشبيه  
الإبل بالسفن، ولكن المتقب صور لنا البيئة البحرية تصوير الخبير المشاهد  
لصناعة السفن وطلاتها حتى لا يتأثر الخشب بالماء، ولا يشبهه فى هذا  
المقام إلا بشر بن أبى خازم، وزاد عليه حديثه عن البضائع التى تحملها تلك  
السفن، من الهند.

وينفرد المسيب بن علس الضبعى فى تصوير البحارة وركوب  
البحر والغوص على اللؤلؤ، فقد وصف حكاية أربعة بحارة غامروا  
بحياتهم فى سبيل واحدة من اللآلى، ورسم لنا فيها لوحة بارعة ومثيرة  
لحياتهم ومشاعرهم، وتتبع لوحته بإطار قصصى جذاب ودقيق، فأنبأنا  
بما ينتاب كل واحد من نجاح وإخفاق على مدار ثلاثة عشر بيتاً، وهو ما  
لم نعتز عليه فى الشعر الجاهلى كله، وكان منطلقه لهذه الحكاية  
وصف صاحبته بالجمانة التى جاء بها رئيس أولئك الغواصين، فقال: (1)

كجمانة البحرى جاء بها :. غواصها من لجة البحر  
صلب الفؤاد رئيس أربعة :. متخالفى الألوان والنحر  
فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا :. ألفوا إليه مقال المر

(1) خزانة الأدب، ج1، ص544. وانظر أيضاً شعراء النصرانية للويس شيخو، ج3/356.

- وعلت بهم سححاء خادمة .. تهوى بهم فى لجة البحر  
حتى إذا ما ساء ظنهم .. ومضى بهم شهر إلى شهر  
ألقى مراسيه بتهلكـ .. ثبتت مراسيها فما تجري  
فانصب أسقف رأسه لبد .. نزغت ربا عيتاه للصبر  
أشقى يمج الزيت ملتمس .. ظمآن ملتهب من الفقر  
قتلت أباه، فقال: أتبعه .. أو استفيد رغبة الدهر  
نصف النهار، الماء غامره .. وشريكه بالغيب ما يدري  
فأصاب منيته فجاء بها .. صدفية كمضيئة الجمر  
يعطى بها ثمنا فيمنعها .. ويقول صاحبه: ألا تشري؟  
وترى الصوارى يسجدون لها .. ويضمها بيديه للنحر  
فتلك شبه المالكية .. طلعت ببهجتها من الخدر

بهذه الطريقة التمثيلية المعبرة والجذابة شوقنا وشغفنا بجمال صاحبتة المالكية، فهي تستحق منه أن يكابد عشقها والسعى الدؤوب أثرها والتمسك بها دون غيرها.. مثله فى ذلك مثل رئيس البحارة الذى أصر على اصطياذ تلك الجمانة... وهى التى قتلت أباه من قبل.

والتأمل للنص السابق لا يخالجه الشك فى قصد المسيب من عرض قصة البحارة والغوص على اللؤلؤ ومدى ما يلاقونه من جهد وعذاب طيلة أشهر عدة.. فحين قص علينا حكاية ركوب البحر الشاقة من أجل الرزق كان يريد إبراز قيمة ما يختزنه اللؤلؤ من ملامح اجتماعية ونفسية وجمالية واقتصادية وكلها وجه واحد لحكايته مع صاحبتة، ولم يستطع ابن أخته الأعشى أن يقرعه وإن عرض لدارين التى

كانت موطن ذلك الغواص ولكنهما استطاعا رسم صورة البيئـة البحرية، وكل منهما أمتع وأرخ لنا بشعره الفنـى ما كان يدور ويجرى فيها من أحداث مختلفة... أما حديث عبيد بن الأبرص فقد ساقه عن البيئـة البحرية سياقاً آخر يلبى رغبته وهدفه فى الافتخار بشعره وقدرته على اصطياد شوارده، فكان بهذا فرداً هو الآخر من دون الشعراء الجاهليين<sup>(1)</sup>، وظل كالمسيب نسيج وحده فى تفصيل صورة البحر، إذ تتبع بحس الفنان الأصل حركة السمك وقدرته على المناورة فى لجـ البحر... فحياته فى الماء وموته بخروجه منه، وحياة عبيد تكمن فى الشعر، وهكذا نرى لسانه يمخر عباب بحره، ومن ثم ينتهى إلى تصوير طريف لدرعه المساء الصافية، القوية النسج، الخالية من الشوائب فيجعل صورة الحوت لها شبهاً، فيقول:<sup>(2)</sup>

سل الشعراء هل سبجوا كسبجى	::	بحور الشعر أو غاصوا مغاصى
لسانى بالأنشير وبالقوافى	::	وبالأسجاع أمهر فى الغياص
من الحوت الذى فى لجـ بحر	::	يجيد السبح فى لجج المغاص
إذا ما باص لاح بصفحته	::	وبيص فى المكر وفى المحاص
-----	::	-----
بنات الماء ليس لها حياة	::	إذا أخرجتهن من المداص
إذا قبضت عليه الكف حيناً	::	تناعص تحتها أى انتعاص
وباص ولاص من ملصى ملاص	::	وحوت البحر أسود ذو ملاص

(1) راجع ديوان عبيد بن الأبرص، ص75. تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار، الطبعة الأولى، 1377هـ.

(2) المصدر السابق، ص76 - 78.

كلون الماء أسود ذو قشور .: نسجن تلاحم السرد الدلاص

والشواهد السابقة تثبت أن عبدا عرف البحر وشاهد ما اختزنه من حياة، سواء فى رحلاته إلى الحيرة أو فى غيرها علماً أن منازل بنى أسد كانت أقرب إلى مناطق الخليج من غيرها، وكذلك كانت منازل ضبيعة إحدى بطون بكر<sup>(1)</sup>:

وهذا لا يعنى أن صورة البيئة البحرية لم ترد فى الشعر الجاهلي، وقد ظل إبداع امرئ القيس متميزاً فى حديثه عن ظلمة البحر، ويقرب منه ما قاله عمرو بن براقة، والطماح التغلبى الذى رسم لوحة فنية ممتعة لعظمة البحر وتلاطم أمواجه وظلمته، وقد جرت فوقه السفن، وجاء هذا فى معرض الحديث عن جيش بنى تغلب مهدياً ومنذراً لبنى شيبان من سطوته فقال:

جند عريض كمثل البحر بسطته .: أو كالظلام، فهل للسلم أن يدنو؟  
فاستسلموا يا بنى شيبان ويد .: كم فالبحر تجرى عليه الريح والسفن

هكذا أتحدث القدرة لدى البحر والجيش فى صورة الطماح فى إيجاز تصويرى يدل على دراية كبيرة بصفات البحر.

وبهذا تتحد النوازع بالملاح المكانية الموحية بالهدف والغاية عند كل شاعر تبعاً للغرض الشعري والمعنى ... فكل شاعر يتصيد من البيئة البحرية ما يلوح بخاطره، ويفصح عن أفكاره، ويعبر عن مشاعره، مما يجعل شعره سجلاً صادقاً لما يوحى به.

(1) الشعر والشعراء، ج1، ص267 - 269.

وحين كان الشاعر يعبر عما اختزنه لم يكن يدور فى خلدہ أن شعره سیغدو وثیقة من أهم الوثائق الأدبیه والاجتماعیه والتاریخیه والجغرافیه. فالواقع النفسى والفكرى، والتاریخى والمكانى مرسوم بكلمات فنیة جمالیة خالدة خلود الزمن.

### خصائص شعر الأطلال فى القصیده الجاهلیة

وعندما نعمن النظر فى افتتاحیات القصائد الجاهلیة التى بدأها أصحابها بهذا الغرض التقليدى - الوقوف على الأطلال - فإننا نجد أنها أقوى آیات هذه القصائد دلالة على نفسیات أصحابها، وأصدقها تصويراً لمشاعرهم نحو بیئتهم وظروف حیاتهم، وأدقها وصفاً لطبیعة بادیتهم وما تشتمل علیه هذه البادیه من أماكن، وما تخرجه أرضها من نباتات وأشجار، وما یعیش فیها من حیوانات مختلفة وما یعتمد علیه سكانها فى حیاتهم، وما لهم من عادات وتقالید، وسلوكیات مختلفة.

#### . 1 .

فمن حیث دلالة الافتتاحیات الطلیة على نفسیات أصحابها الشعراء نجد أنها قد أوحى إیحاءاً قویاً بما كانت تطوى علیه نفوس هؤلاء الشعراء من عاطفة صادقة نحو محبوباتهم تتمثل فى وفائهم للحب وحنینهم الدائم إلى آیامه، وإخلاصهم الشدید لذكریاته، إخلاصاً لا یزیده مر السنین وتعاقب الأعوام إلا رسوخاً واستمراراً لدرجة أن الشاعر یخیل إلیه عندما یقف على الطلل بعد مدة لیست بالقصیره، أن حبیبته لا زالت فى مكان لہوا ومرتع صباها كعهده بها من قبل على الرغم من رؤیته لآثار البلى

والخراب المسيطرين على المكان، وما ذلك إلا لأن الشاعر الوفى استغرق في استعراض ذكرياته استغرافاً نسي معه نفسه وذهل فيه عن لحظة واقعه. فها هو امرؤ القيس يمر بالأطلال بعد ثلاثين شهراً فيروعه ويفزعه ما حل بها من مظاهر البلى ولكنه يجد أن من حقها عليه أن يلقى عليها تحية الصباح المعهودة في الجاهلية " عم صباحاً " - أو أن فرحته بالتعرف على المكان تتسيه ما هو عليه وأنه خرب ليس به أنيس يرد التحية بمثلها، ثم يراجع نفسه في تأثر حزين قائلاً: وكيف ينعم مكان نزل به ما أرى، ومرت عليه حقبة طويلة وهو على تلك الحال؟ إن الناعم حقاً هو السعيد في حياته الخالي من الهموم والأوجال<sup>(1)</sup> ليس ذلك الذي تعتريه ظروف البلى من رياح وأمطار ويتعرض لثلاثة أصناف من التغيير في مدة ثلاثين شهراً وتنزل عليه الأمطار الغزيرة التي من شأنها محو معالمه وإزالتها وكأنها لا تعلم أن هذا الذي تمحو معالمه وتزيل آثاره إنما هو مسرح أمراح " سلمى " الحبيبة، وموطنها الذي كانت تعطره بأنفاسها وتشيع في أرجائه السعادة والبهجة.. ولكنه مع هذا يغيب عن وعيه في حلم خيالي يبحث فيه عن سلمى في منعطفات الوادي وهي تداعب صغار البقر الوحشى وتتسلى بالبحث عن بيض النعام وأنها لا تزال على عهده بها في ليالي اللقاء حيث كان ينعم بثغرها المستوى وجيدها الجميل الذي يشبه جيد الغزال، وبعد أن يصحو

(1) وهو هنا يشخص الطلل الذي هو مظهر من مظاهر الطبيعة ويعبر عنه من خلال مشاعره هو، وكان الطلل إنسان عاقل يشعر بالحزن والألم لما نزل به وكان بينه وبين الشاعر تجاوب روي يجعله يعيش ظروفاً تشبه ظروف الشاعر الحزينة التي كان يعيشها عقب مقتل أبيه وكفاحه للأخذ بثأره فكان ما بداخله انتقل إلى الطلل الأصم. وإن فإنا نستطيع أن نقول إن الرومانسيين لم ي اخترعوا هذا الاتجاه - تشخيص مظاهر الطبيعة - من عند أنفسهم ولكنهم استمدوه من شعرنا القديم ثم طوروه وزاوا عليه.

على الواقع يخاطب نفسه قائلاً: أفق فإنك تحلم. أين أنت من سلمى وعهدها؟

ألا عم صباحاً أيها الظل البالى  
وهل يعمن إلا سعيد مخلد  
وهل يعمن من كان أحدث عهده  
وهل يعمن من كان فى العصر الخالى؟  
قليل الهموم ما يبببب بأوجال؟  
ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال؟

ديار لسلمى عافيات بذى الخال  
وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا  
ألح عليها كل أسحم هطال  
من الوحش أو بيضا بميثاء محلال!

وتحسب سلمى لا تزال كعهدها  
ليالى سلمى إذ تريك منصبا  
بوادى الخزامى أو على رس أوعال!  
وجيدا كجيد الرئم ليس بمعطال<sup>(1)</sup>

والإخلاص فى الحب والوفاء لذكريات أيامه الجميلة لا ينسيان  
العاشق الوفى نفسه فحسب خلال وقوفه على أطلال محبوبته ولكنهما  
يوهنان من عزيمته ويذهبان بجلده وقوة تحمله فيبكى بكاء المحزون،  
الكليم الواد، أو الثكلى جدت أحزانها الأيام، وأن رفقاه الذين  
استعان بهم واستبكاهم لينصرفون عن مواصلة المجاملة إلى موقف آخر  
يرونه أجدى عليه وأبقى لحياته، وهو موقف النصيحة بالألا يفرق فى  
أحزانه مخافة جلبه الهلاك على نفسه. فالأجدى له أن ينسى الماضى  
ويقبل على الاهتمام بما ينفعه غدا. ولكن ويل للشجى من الخلى. أن ما

(1) واضح أنه فى قوله تحسب يجرى من نفسه شخصاً يخاطبه والطلا ولد البقرة  
الوحشية، الميثاء ميل الوادى أو الطريق إلى الماء، المحلال: الذى يحله الناس كثيراً،  
المنصب: الثغر المستوى، الجيد: العنق: انظر: امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، د.  
الظاهر مكي، ص 236.

وبقلبه من لذع الحزن، على فراق أحبابه لا يخففه إلا ذرف الدموع. فلا بد من إطالة الوقوف والاستمرار في البكاء حتى يشتفى صدره وتهدأ ثورة أحزانه، وأن تتصل دموع أمسه غداة ارتحال الأحباب بدموع اليوم وهو يبكي على أطلالهم وأن تكون هذه الدموع غزيرة تسقط على صدره وتبل محمله، يقول امرؤ القيس أيضاً:

وقوفا بها صحبى على مطيهم  
يقولون لا تهلك أسيّ وتجمّل<sup>(1)</sup>  
فدع عنك شيئاً قد مضى لسبيله  
ولكن على ما غالك اليوم أقبل  
وقفت بها حتى إذا ما ترددت  
عماية محزون بتشوق موكل  
وإن شفائي عبرة لو سفحتها  
وهل عند رسم دارس من معول<sup>(2)</sup>

.....

كأنى غداة الروع يوم تحملوا  
لدى سميرات الحى ناقف حنظل  
ففاضت دموع العين منى صباية  
على النحر حتى بل دمعى محملي  
وبعد أن يعطى الشاعر العاشق أطلال المحبوبة حقها بالبكاء عندها وينصرف عنها مستأنفاً رحلته فى فجاج الصحراء المترامية الأطراف، ويحط رحاله فى إحدى الفلوات بغية الراحة فإن سيطرة الذكرى التى أهاجب أشجانها رؤية الأطلال تجعل الأحلام تتوافد عليه وهو نائم وتجتذب خيال محبوبته ليؤنسه خلال نومه، وينصرف عنه سريعاً بمجرد أن يفيق حيث يتلفت حوله فلا يجد إلا رحله والصحراء الممتدة،

(1) جمهرة أشعار العرب: أبو زيد القرشي، ص 15 وما بعدها، تحقيق الجاوي.  
دع: اترك، الغول الهول والمشقة وغاله، أذهبه وأهلكه أى دع ما مضى وأقبل على ما تدفع به عن نفسك المشقة اليوم أو أقبل على دفع كل مكروه تتعرض له اليوم.  
(2) فى المعلقة شرح الزوزني: عبرة مهراقة فهل الخ، سفح الدمع: صبه، الرسم الدارس: الأثر البالى، معول: شيء يعول عليه، الصباية "رقة الشوق، المحمل: موضع حمالة السيف فالدموع سألت على عنقه وتسربت فبلت حمالة سيفه أو موضع حمالته.

وقد أحدث الخيال الطارق آلاماً وأشجاناً تجرح القلب وتشعل نيران  
 الحزن، فليت الحلم كان حقيقة وليت زيارتها تحققت وعاین رسمها فى  
 الصباح يقظاناً، ولكن: هكذا العهد بخيالها دائماً يواصل زيارته له وهو  
 نائم فى كل مكان ينزل به ثم يولى ويترك له تباريح الشوق ودموعه  
 المتحدرة يقول المرقش الأصغر<sup>(1)</sup> ربيعة ابن سفيان من بكر بن وائل:

أمن رسم دارٍ دمع عينك يسفح	غدا من مقامِ أهلهُ أو تروّخوا؟
ترجى به خُسُ الظباءِ سخالها	جانرِها بالجَوِ وردٌ وأصبحُ
أمن بنت عَجَلان الخيالِ المطوِّحُ	ألمَّ ورحلى ساقطُ مترحزح
فلما انتبهنا بالفلاة وراعنى	إذا هو رحلى والفلاة توضح
ولكنه زورٌ يوقظُ نائما	ويُحدِّثُ أشجانا لقلبك تجرح
بكل مبيتٍ يعترينا ومنزلٍ	فلو أنها إذ تدلج الليل تصبح
فولت وقد بثت تباريح ما ترى	ووجدى بها إذ تُحدِرُ الدَّمعُ أبرح

. 2 .

كما دلت المقدمات الطللية على نفسيات الشعراء وأوحت بما  
 تتطوى عليه هذه النفسيات من عاطفة صادقة نحو محبوباتهم جعلتهم  
 يتمسكون بحبهن ويفنون لذكرياتهم معهن، فإن هذه المقدمات صورت لنا

(1) جمهرة أشعار العرب للقرشي، ص 437 وما بعدها، الاستفهام هنا تقريرى أنه يقر  
 ببيكانه وسفح دموعه عند أطلال أحبابه الذين تركوها ذات مساء أو صباح.  
 ترجي: تسوق والخنس القصير مقدم الأنف، السخال الصغار من أولاد الظباء  
 والجأزر: أولاد البقر الوحشى ويريد أن ديار الأحباب صارت مرتعا للظباء والجأزر  
 ورد: فى لون الورد، أصبح: أشد حمرة من الورد أو فيه بياض، يوقظ: ييقظ، الزور:  
 الزائر، تدلج تسير ليلا، أبرح: أشد، يريدان يقول: أن شوقى يشتد إليها بعد يقظتى  
 وكلما ذرفت الدموع اشتد شوقى إليها.

تصويراً صادقاً جلياً مشاعر الشعراء الجاهليين نحو بيئتهم البدوية وظروف حياتهم بها، فبيئة الصحراء بالجزيرة العربية لم تكن بيئة مستقرة يشعر قاطنوها بالأمن والاستقرار والاطمئنان النفسى ولكنها كانت بيئة متنقلة لا يستقر ساكنوها بمكان إلا ريثما يستعدون لتركه والنقلة عنه، ولقد طبعت هذه الظروف المعيشية القلقة حياة الشعراء بطابع قائم من الحيرة والقلق والتمزق النفسى وعكست هذا الإحساس على قصائدهم وطريقة ترتيبهم لأفكارها ككل، وعلى منهجهم الذى رسموه لأنفسهم فى افتتاحها بالوقوف على الأطلال بوجه خاص.

ولست مع الذين وصفوا عرب الجاهلية فى اتجاههم الذى اتجهوا إليه من حيث اشتغال قصائدهم على أغراض متعددة لا رابطة بينها بالسطحية فى نظرهم إلى الأمور<sup>(1)</sup>، أو أن عدم معرفتهم بالفلسفة جعلتهم لا ينظرون إلى الأشياء نظرة عامة شاملة<sup>(2)</sup>. وقولهم أن العربى " كان يطوف فيما حوله فإذا رأى منظرًا أعجبه تحرك له وجاش صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر تذهب مذهب الأمثال والحكمة، ثم أنه كان إذا نظر إلى الشيء الواحد لا يستغرقه تفكيره بل يقف فيه على مواطن خاصة تثير عجبه فيتترك الشجرة ككل أو كمجموع وينظر إلى استواء ساقها وجمال أغصانها فيصف هذا ويترك الأصل".

فليست السطحية وليس عدم العلم بالفلسفة ولكنه التمزق النفسى والشعور بالضيق وعدم الاستقرار "ولئن ارتبط الحنين فى عصرنا الحاضر

(1) الدكتور / عبد الحميد المسلوب: الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام، ص 298.  
(2) مقدمة شرح المعلقات السبع للزوزنى: منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ص 11

بوطن محدد ثابت تتعلق به مشاعر المواطن، فقد كان فى حياة الفرد العربى وطناً متجدداً متغيراً، كل واد يهبطه يتعلق به وله فيه ذكريات. كل منزل يألفه يلقط منه مشاعر مغيرة، كل رحلة يقطعها ترهف وجدانه بجديد من الأحاسيس والحياة والناس، فكان الشاعر يعانى تمزقاً نفسياً لا يشعر معه بالطمأنينة، ويجد تلذذاً وعزاءً وسلوى فى تذكر أحداث الماضي. كانت حياته كلها رحلة وعبرها كان يغير طريقه أكثر من مرة، وأحياناً دون أن يعرف إلى أين وفيهم؟<sup>(1)</sup>

ومن هنا كان " البكاء على الأطلال ثمرة البيئة المتقلبة... لقد رأى الشاعر الأطلال، فأول ما يسترد عنها من ذاكرته أجمل ما كان فيها وفى حياة صحراوية قاسية ومجتمع بدوى جاف تصيح المرأة أرق وأجمل ما فيه، ومشاهد التحمل آخر ما رأى من مناظر أحبته فهو يتتبعهم أيان ساروا وإلى أين اتجهوا، ويعقب وصف هذه المشاهد تحديد الأطلال ولكنها لا تأتى فى كل المقدمات.

يصدر الشاعر الجاهلى فى بكائه للأطلال وتصويره لأحزان الوداع عن عاطفة ذات جانب إنسانى عام يشارك فيه الناس جميعاً فى كل عصر وبيئة لأنه يتصل بأعمق مشاعر الفرد وأصدقها من الحب والصدقة والوفاء، ويرتبط بماضيه وحاضره وأمسه ويومه بإخفاقه ونجاحه، والعاطفة فيه جانب جوهرى أصيل وليست زينة تأتى مكملة وتابعة.. وهى - بكاء الأطلال - قبل ذلك وفوقه تعكس ارتباط الإنسان

(1) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية للدكتور الطاهر أحمد مكي: ص260، طبعة دار المعارف بمصر.

بأهم شيئين: الأرض والحياة، وهذا الارتباط لا يتجه إليه الشاعر مباشرة وإنما يعبر عنه إحياء مخفياً وراء ستار رقيق أو صفيق من أسماء الأمكنة والمواضع والأشخاص رموز تضيع مع اندماجنا فى تجربة الشاعر فيبقى لنا فيها ما وراءها وما ترمز إليه وتسقط معها الملامح الجغرافية المحددة، وتظل للتجربة أصالتها وشمولها، يقرؤها الناس فيسعدون ويعجبون فى كل مكان وعلى كل لسان"<sup>(1)</sup>.

وعندما نقلب صفحات الشعر الجاهلى فإننا نجد الشواهد واضحة جلية على ما ذهبنا إليه. فللمح فيها التصوير الصادق لمشاعر الشعراء نحو بيئتهم القلقة المضطربة وما كانوا يعانونه هم من قلق وتمزق نفسي. " فامرؤ القيس يمر بأطلال حبيباته: هند والرياب وفرتنا وليس فيتساءل: لمن هي؟ ثم يعطينا تحديداً جغرافياً دقيقاً يتمثل فى عدد من أسماء الأماكن التى عاش بها يوماً فهي: سحم وعمائتين وذى أقدام وصفا الأيطيط وصاحتين وغاضر. أماكن فارقتها أهلها فأصبحت منزلاً للنعاج والأرام. أنها ديار هند والرياب وفرتى وليس. كنا هنا قبل أن تباعد بيننا نوازل الأيام. اعطفا معى يا رفيقى على أطلال أمس الذاهبة نبيكها كما بكى ابن خدام قبلى أطلاله. أنها ذكريات تعيش فى أعماق حية متحركة وأكاد ألمح قوافلهم ترتفع عليها الهواجج مختلفة الألوان كنخل حان صرامه. فيهن نساء بيض الوجوه نواعم الأجسام أسرات العيون يكثرن من التطيب بالعبير، ويجوس خلال الديار حائر الفكر موزع

(1) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، ص 264.

القلب تختلط فى مشاعره مباحج الأمس مع حرمان اليوم، وتتداخل  
 ذكريات الماضى مع أشواق الحاضر، وهو بها ثمل وضائع كنشوان  
 احتسى خمراً فى صباح مبكر، خمراً معتقة كرومها فى " شبام " أو  
 عصرت فى " عانة " ولونها كلون دم الغزال، فهى من أطيب أنواع الخمر،  
 ما يكاد يحتسيها الشارب حتى يذهب عقله وينعقد لسانه، فيخلط فى  
 كلامه كأنه مصاب فى بدنه"<sup>(1)</sup>.

لمن الديار غشيتها بسحام	فعمائتين فهضب ذى أقدام
فصفا الأطيع فصاحتين فغاضر	تمشى النعاج بها مع الأرام
دار لهند والرباب وفرتى	ولميس قبل حوادث الأيام
عوجا على الطلل المحيل لأننا	نبكى الديار كما بكى ابن خدام
أو ما ترى أظعانهن بواكرا	كالنخل من شوكان حين صرام
حور تُعلّل بالعبير جلودها	بيض الوجوه نواعم الأجسام
فظللت فى دمن الديار كأننى	نشوان باكره صبوح مدام
أنف كلون دم الغزال معتق	من خمر عانة أو كروم شبام
وكان شاربها أصاب لسانه	موم يخالط جسمه بسقام <sup>(2)</sup>

والنابغة الذبياني يمر بأطلال فرتى فى ذى حسا والفوارع وجنبى  
 أريك والقلاع ومجتمع الأشراج ويتمكن من التعرف عليها على الرغم من  
 مرور ستة أعوام أو سبعة، ولكنه لم يتمكن من ذلك إلا بعد جهد

(1) امرؤ القيس أمير الشعراء الجاهلية، ص252.

(2) المحيل: الذى أتى عليه الحول فتغير، صرام الشيء قطعه وصرام النخل جنبى ثمره،  
 أنف بضم الهمزة والنون مستأنفه أى أول ما فتقت وأخرجت من الدن، عانة: قرية  
 بالجزيرة، شبام: قرية، موم: عله يهذى بها.

ومشقة لأن الأيام فعلت بالأماكن الأفاعيل، وماذا رأى فى أماكن المحبوبة؟ لقد رأى بقية رماد تبدو داكنة كأنها كحل العين آثاراً لا تكاد تبين لحفير مما كان يحفر حول الخيمة ليحميها من تسرب مياه السيول إلى داخلها كبقية الحوض اللاصق بالأرض، وذلك لأن الرياح الشديدة غيرت معالم المكان وتركته مخططاً بالرمال المتعرجة كأنه حصير تأنفت الصوانع فى نسجه وبسطه التجار للعرض، فلم يملك إلا الانصراف حزيناً وقد سالت دموعه على نحره فأخذ يكفكفها. يقول:

عفا ذو حسى من فرتنى فالفوارع	فجنبا أريك، فالتلاع الدوافع
فمجمع الأشراج غير رسمها	مصايف مرت بعدنا ومرابع
توهمت آيات لها فعرفتها	لسته أعوام وذا العام سابع
رماد كحل العين لأياً أبينه	ونؤدى كجذم الحوض أثلم خاشع
كأن مجر الرامسات ذيولها	ظهر مبناة جديد سيورها يطوف بها
عليه حصير نغمته الصوانع	اللطيمة، بائع على
على النحر منى مستهل وداعم <sup>(1)</sup>	فكفكفت منى عبرة فرددتها

والتمزق النفسى الذى يعانى منه عنتره بسبب ظروف البيئة الكئيبة

(1) ديوان النابغة الذبياني، ص78، ط: دار بيروت للطباعة والنشر، عفا: درس، نو حسا: مكان، الفوارع: مكان، أريك: موضع، القلاع: جمع قلعة مجرى الماء من أعلى الوادى أو ما انبسط من الوادى، الدوافع التى تدفع إلى الوادى والمعنى: لم يبق من آثارهم شيء، الأشراج: مسايل الماء من الحرة إلى السهل، المصايف: جمع مصيف من الصيف والمرابع جمع مربع من الربيع. يقول: محيت آثار هذه المواضع بمرور الأزمان من الصيف والربيع، ولأيا: جهداً ومشقة، النوى: حفير حول الخيمة، والجذم: الأصل، أثلم: متثلم متكسر، خاشع: لاصق بالأرض، الرامسات: الرياح الشديدة الهبوب التى ترمس الأثر أى تدفنه، ذيول الرياح: أواخرها أو أوائلها، غفته: زينته، المبناة هى التى ييسط عليها التاجر ما يبيعه، السيور: الاشراك، اللطيمة سوق العاطرين أو غير يحمل عليها الطيب، كفكف الدمع: مسحه، المستهل: السائل المنصب.

التي فرضت عليه الحرمان ممن أحب جعلته ينصرف عن الواقع وربط  
الأسباب بالمسببات إلى التعويل على الأوهام والخرافات والتطير بمنظر  
الغراب واتهامه بالنعيب برحيل الأحباب ومن ثم فإنه يصفه بالبشاعة وقبح  
المنظر ويدعو عليه بالضياح والتشرد لأنه نعى إليه الأحباب الذين جرحوا  
قلبه وأسهروا ليله:

ظعن الذين فراقهم أتوقّع      وجرى بينيهم الغراب الأبقع  
خرق الجناح كأن لحي رأسه      بالأخبار هش مولع  
فزجرته ألا يفرخ عشه      أبداً ويصبح واحداً يتفجع  
أن الذين نعت لي بفراقهم      هم أسهروا ليلي التمام فأوجعوا<sup>(1)</sup>

### . 3 .

ومن خلال البكاء على أطلال الأحبة والتعبير عما يعتمل في  
قلوب الشعراء المحبين نجد الوصف الدقيق لطبيعة البادية فهي أرض  
فضاء شاسعة تهب عليها الرياح الشديدة من الجنوب والشمال والشرق  
فتدعها كالثوب البالي الملقى على الأرض وله ذيل طويل.. يقول امرؤ  
القيس:

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها      لما نسجتُها من جنوبٍ وشمالٍ  
خلاء تسح الرياح في جنباتها      كساها الصبا سحق الملاء المذيل

ومن ثم فهي أرض مخوفة توارثها الهلاك، ونزل بكل من يحلها.

(1) ديوان عنتره، ص48، ط: دار بيروت للطباعة والنشر، الأبقع: الأسود فيه بياض،  
خرق الجناح: نسل ريشه وتقطع، اللحيان: جانب الوجه، الجلطان: مثى جلم وهو  
المقراض، هش: مولع فرح أى بفرقة الأحباب، يدعو عليه بأن عشه وإن يبقى وحيداً  
يتفجع على أهله لأنه كان سبب الفراق.

يقول عبيد بن الأبرص:

أرض توارثها شعوبٌ فكل من حلها محروب<sup>(1)</sup>

وهذه الأرض المقفرة قد تعمر بقاطنيها حيناً فإذا رحلوا عنها وخلوها  
صارت خراباً لا أثر فيها للحياة إلا تلك الأشياء الملقاة هنا وهناك مما لا يعبأ  
به كبقايا مرابط الدواب والحفير التي كانت تحضر حول الخيام يقول  
النابغة الذبياني:

وقفتُ فيها أصيلاًناً أسائلها عيت جوابا وما بالريع من أحد

إلا الأورئى لأيا ما أبينها والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا أحنى عليها الذى أحنى على ليد<sup>(2)</sup>

وليست الأورئى والنؤى فحسب، بل هناك بقايا المواقد من  
الحجارة المحترقة، ونبات الثمام الذى كان يستعمل فى سد خلل الديار.  
يقول النابغة - أيضاً - :

فما وجدت بها شيئاً ألوذ به إلا الثمام وإلا موقد النار<sup>(3)</sup>

كما أنها عرضة للأمطار الغزيرة التى تعاون الرياح الشديدة فى  
محو آثارها وإزالة معالمها. يقول امرؤ القيس:

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألح عليها كل أسحم هطال

ويقول النابغة:

(1) جمهرة أشعار العرب، ص 381 شعوب بفتح الشين وضم العين: الموت، ومحروب  
أى هالك.

(2) ديوان النابغة الذبياني، ص 30، ط: دار بيروت للطباعة والنشر.  
وأصيلان تصغير أصلان الواحد أصيل، عيت: عجزت. الريع: المنزل. الأورئى:  
جمع أرى وهى الأخية تشد بها الدابة. المظلومة: الأرض التى حفر فيها حوض ولم  
تستحق ذلك. الجلد: الأرض الصلبة.

(3) ديوان النابغة، ص 48، ط: دار بيروت للطباعة والنشر.

تعاورها الأرياح ينسفن تريبها وكلُّ مِلثٌ ذى أهاضيب راعد<sup>(1)</sup>

هذه الأطلال المكونة من رمال وأحجار لا تقوى على مواجهة عوامل التعرية من الرياح وأمطار لا تكف عن تعاورها وإظهار ما انطمر منها تحت الرمال، مما يجعل الرائي يتبينه بوضوح كأنه بقايا وشم على ظاهر اليد كقول طرفة:

لخولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد  
أو كأنه سطور منقوشة فى كتاب.. كقول حاتم الطائي:

أتعرف أطلالا ونؤيا مهذما كخطك فى رق كتابا منمنما  
وقول المرقش الأكبر:

الدَّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كما رَقَّشَ فى ظَهْرِ الأديمِ قلم<sup>(2)</sup>  
وقول سلامة بن جندل:

لمن ظلَّ مثلُ الكتابِ المنمَّقِ خلا عهده بين الصُّليبِ فمطرق<sup>(3)</sup>

. 4 .

لقد حفل شعر الوقوف على الأطلال بالكثير من أسماء الأماكن التي اشتملت عليها الجزيرة العربية في العصر الجاهلي وهي كثيرة جداً لا يستطيع الباحث أن يحصرها إلا إذا وضع أمام عينيه جميع أشعار الجاهلين من أصحاب المعلقات وغيرهم وهي كما نعلم منها ما هو معروف

(1) المرجع السابق، ص 43، تعاورها: تداولها وتعاقب عليها، الأرواح: الرياح، الملت: المطر يدوم أياماً، الأهاضيب جمع أهضوبة: الدفعة من المطر.

(2) الرق: الجلد يكتب عليه، منمنم: منقوش، المفضليات، ص 237.

(3) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي، الأصمعيات، ص 132.

ومنها ما هو مجهول، كما أن منها الصحيح الذى أجمع الرواة أو كادوا على صحته، ومنها المنحول الذى شكك الرواة فى نسبته إلى قائله، وعلى سبيل الاستشهاد لا الحصر نجد أن امرأ القيس وهو أول من عرف بوقوفه وبكائه واستبكاؤه:

يذكر: سقط اللوى - والدخول، وحومل وتوضح والمقراة:

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل<sup>(1)</sup> كما يذكر "ذا الخال" و"ميثاء محلال" و"وادي الخزامى" و"رس أو عال"<sup>(2)</sup>:

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألح عليها كل أسحم هطال  
وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا من الوحش أو بيضا بميثاء محلال!  
وتحسب سلمى لا تزال كعهدينا بوادي الخزامى أوعلى رس أوعال!<sup>(3)</sup>

كما يذكر "بطن قو" و"عرعر" و"الأفلاج" و"تيمر" والمشقر:

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا وحلت سلیمی (بطن قو) "فعرعرا"  
كانيّة بانّت وفى الصدر وُدّها مجاورّة غسان والحي يعمرأ  
بعينى ظعن الحى لما تحملوا لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا  
فشبهتهم فى الال لما تكمشوا حدائق دوم أو سفينا مقيرا  
أو المكرعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللانى يلين المشقرا

(1) شرح المعلقات السبع للزوزنى، ص29.

(2) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية. ص236.

(3) المرجع السابق، ص240، وتكمشوا حثوا السير المقير: المطلى بالقار.

كما يذكر فى قصيدة الثالثة: "سحام" و "عمائتين" و "هضب ذى  
أقدام" وصفا الأبطيط، وصاحتين وغازر.. يقول:

لمن الديار غشيتها بسحام فعمائتين، فهضب ذى أقدام

فصفا الأبطيط فصاحتين فغازر تمشى النعاج بها مع الأرام<sup>(1)</sup>  
وفى قصيدة رابعة يذكر العقيق، وثنية مطرق:

على إثر حى عامدين لثنية فحلوا العقيق أو ثنية مطرق<sup>(2)</sup>

كما يذكر "عسعس" فى قصيدة خامسة:

ألمّا على الرّبع المقيم بعسعسا كأتى أنادى أو أكلّم أخرسا<sup>(3)</sup>

وزهير بن أبى سلمى يذكر "حومانة الدراج" و "المتلم" والرقمتين.. يقول:

من أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتلم  
ودار لها بالرقمتين كأنها مراجيع وشم فى نواشر معصم<sup>(4)</sup>

كما يذكر "القفين" و "الركن" و "بطن الجو" يقول:

كم للمنازل من عام ومن زمن لآل أسماء بالقفين فالركن  
لآل أسماء إذ هام الفؤاد بها حيناً وإذ هى لم تظعن ولم تب  
وإذ كلانا إذا حانت مفارقة من الديار طوى كشحا على حزن  
فقلت والدار أحيانا يشط بها صرف الأمير على من كان ذا شجن  
لصاحبى وقد زال النهار بنا هل تؤنسان ببطن الجو من ظعن<sup>(5)</sup>

(1) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية. ص252، الديوان، ص56.

(2) المرجع السابق، ص254.

(3) المرجع نفسه، ص256.

(4) شرح المعلمات السبع للزوزني، ص133.

(5) المنازل والديار لأسامة بم منقذ، ص85، طوى كشحا: ولى حزينا، يشط: يبعد،  
صرف الأمير: تصرفه وتقلبه والأمير: المشاور، تؤنسان: تبصران.

كما يذكر "الغميرين":

دار لأسماء بالغميرين ماثلة كالوحي ليس بها من أهلها أرم<sup>(1)</sup>

ويذكر أيضاً: "قنة الحجر" و "مندفع النحائت" و "ضفوى":

لمن الديار بقنة الحجر أقوين مذ حجج ومذدهر<sup>(2)</sup>  
قفر بمندفع النحائت من ضفوى أولات الضال والسدر

والنابغة الذبياني يذكر: "العلياء" و "السند":

يا دار مية بالعياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد<sup>(3)</sup>

كما يذكر الحمآت:

دار نعم بالحمآت قد دثرت لم يبق إلا رماد بين أظار<sup>(4)</sup>

كما يذكر "عريتات" وأعلى الجزع:

غشيت منازل بعريتات فأعلى الجزع للحيّ المُبِن<sup>(5)</sup>

كما يذكر "روضة نعمى" و "ذات الأسود":

أهاجك من سعادك مغنى المعاهد بروضة نعمى فذات الأسود<sup>(6)</sup>

كما يذكر طرفة بن العبد "برقة ثمهد":

لخولة أطلال ببرقة ثمهدتلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد<sup>(7)</sup>

(2) المنازل والديار، ص95، والوحي: الكتاب.

(3) مصادر الشعر الجاهلي، ص515. أقوين: أقفرن، والضال والسدر: نوعان من الشجر.

(4) شرح المعلقات السبع، ص292، دثرت: بليت، والأظار: الحجارة التى تتصب عليها القدور.

(5) جمهرة أشعار العرب، ص183.

(6) ديوان النابغة، ص122، المبن المقيم بهذه المنازل.

(7) ديوان النابغة، ص43، ط: دار بيروت، وراجع الجمهرة.

(1) شرح المعلقات السبع، ص91.

أما عنتره فيذكر "الجواء" و "الحزن" و "الصمان" و "المتثلّم"  
و "عنيزتين" و "الغيلم" .. يقول:

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى  
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمان فالمتثلّم  
كيف المزار وقد تربح أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغيلم (1)  
كما يذكر ليبيد بن أبي ربيعة "منى" و "غول والرجام" ومدافع  
الريان: (2)

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها  
مدافع الريان عزري رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها (3)

وكذلك يذكر عبيد بن الأبرص: "ملحوب" و "القطبيات" و "الذنوب" فى قوله:

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب (4)

ويذكر الأعشى: "بطن الغميس" و "بادولى" و "السخال وعلوية" فى قوله:

حل أهلى بطن الغميس فيادولى وحلت علوية بالسخال (5)

ويذكر سلامة بن جندل: "الصليب، ومطرق":

لمن ظلل مثل الكتاب المنمق خلا عهده بين الصليب فمطرق (6)

(2) ديوان عنتره، ص16، ط: دار بيروت للطباعة والنشر.

(3) شرح المعلقات السبع، ص159، ومنى موضع غير منى المحرم والمحل من الديار: ما حل فيه لأيام معدودة، والمقام منها: ما طالت به الإقامة، تأبد: توحش والغول والرجام، جيلان معروفات.

(4) المرجع السابق، ص159 والوحي بضم الواو وتشديد الياء: الكتابة والوحي بفتح الواو وسكون الحاء الكتاب، والسلام: جمع سلمة بكسر اللام وهى الحجر.

(5) شرح المعلقات السبع، ص330.

(6) جمهرة أشعار العرب، ص203.

(1) مصادر الشعر الجاهلى، ص82، والصليب بالصاد المشددة المضمومة واللام المفتوحة والياء الساكنة.

وبشر بن أبي خازم يذكر " الأنعم " :

لمن الديار عَشِيَّتْهَا بِالْأَنْعَمِ      تبدو معالمها كلون الأرقم<sup>(1)</sup>

أما خدّاش بن زهير فيذكر: توضح، وماشن، وشعر، ورايبة الجضر  
والنخل والعرجين وسويقة :

أمن رسم أطلال بتوضح كالسطر      فماشن من شعر فرايبة الجفر  
إلى النخل فالعرجين حول سويقة      تأنس في الأم الجوازئ والعفر<sup>(2)</sup>

- 5 -

والبادية العربية فى الجاهلية كانت غنية بأنواع مختلفة من نباتات  
وأشجار البيئة الصحراوية التى ذكرها الشعراء الجاهليون فى معرض  
التشبيه أو الإشارة لمواقف معينة، ولم تخل مقدمات القصائد - الوقوف  
على الأطلال - من ذكر لبعض هذه الأشجار والنباتات، مثل النخل الذى  
كان من أشجار البيئة، فهو ينمو فى معظم الأماكن وتقع عليه أعين  
الشعراء كثيراً، ويشاهدونه صغيراً وكبيراً، محملاً بالثمرات أو خالياً  
منها، ولذلك شبه امرؤ القيس الطعائن التى كانت بينها ظعينة  
محبوبته، فى تمايلها على ظهور الإبل التى تتهادى فى مشيها بتمايل نخيل  
غير مثمر. يقول:

ألا عم صباحاً أيها الربيع وانطق      وحدث حديث الركب إن شئت واصدق  
وحدث بأن زالت بليل حُمُولُهُمْ      كنخلٍ من الأعراض غير مُنْبَقِّ<sup>(1)</sup>

(1) جمهرة أشعار العرب، ص 3990 الأرقم: الحية.

(2) المرجع السابق، ص 413، الرسم: الأثر، تأنس: أى ليس فيها أنيس معهن، الجوازئ  
التى اجتذرت بالرطب من الكلاء عن الماء، والأدم: السم، والعفر: الغبر كالتراب أى  
ليس فيها، مؤنس سوى هذه الوعول.

وهو ادج النساء المختلفة الألوان تتمايل أيضاً فوق ظهور الجمال  
 السريعة فتبدو من بعيد كالسفن المطلية بالقار أو حدائق الدوم أو  
 أشجار النخيل المرتفعة التي تحيط بها المياه، وقد كثر جريدها وغزر  
 سعفها وأوقرت بأحمال من البلح الأحمر فى منطقة المشقر الغنية بالتمر  
 الجيد والتي يحميها الحراس بأسيافهم حتى لا ينهبها الناهيون  
 ويستمرون فى حمايتها إلى أن ينضج الثمر ويجنى:

بعينى ظعن الحى لما تحملوا      لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا<sup>(2)</sup>  
 فشبهتهم فى الآل لما تكمشوا      حدائق دوم أو سفينا مقيرا  
 أو المكرعات من نخيل ابن يامن      دوين الصفا اللائى يلين المشقرا  
 سوامق جبار أثيث فروعه      وعالين فنوانا من البسر أحمرأ  
 حمته بنو الربداء من آل يامن      بأسيافهم حتى أقر وأوقرا<sup>(3)</sup>

ومن النباتات الصحراوية التى تأكلها الإبل فى أيام الجذب "حب  
 الخمخم" وهو حب أسود إذا أكلته الغنم قلت ألبانها<sup>(4)</sup>.

يقول عنتره مصوراً فزرعه لقرب رحيل المحبوبة نظراً لانتهاه  
 المرعى بذلك المكان.

ما راعنى إلا حمولة أهلها      وسط الديار تسف حب الخمخم  
 ومنه أيضاً: البربر وهو ثمر الأراك أو المدرك معه، وكذلك المرد

(1) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، ص254.  
 (2) المرجع السابق، ص240، تكمشوا: حثوا السير، مقير: مطلى بالقار، مكرعات: نخيل  
 مغروسات فى الماء، ابن يامن: شخص عرف بكثرة نخيله، الصفا والمشقر: قصران  
 بناحية اليمامة.  
 (3) سوامق: مرتفعات، أثيث: غزير، فنوان: جمع قنو وهو العنق، البسر: البلح، أقر  
 وأوقر: كمل حملة.  
 (4) جمهرة أشعار العرب، ص252، وشرح المعطقات السبع، ص237.

وهو ثمر الأراك أيضاً.. يقول طرفة فى تشبيه الحبيبة بالظبية التى تنفض  
ثمار الأراك وتتناول أطرافها بعنقها الطويل وتدخل بين الأغصان:

وفى الحى أحوى ينقض المرد شادن      مظاهر سمطى لؤلؤ وزيرجد<sup>(1)</sup>  
خذول تراعى ربريا بخميلىة      تناول أطراف البرير وترتدى

وكذلك النور وهو زهر الأخوان.. يقول طرفة مصوراً ثغر المحبوبة:  
وتبسم عن ألى كان منورا      تخلل حر الرمل ظاهره ندى  
وعنب الثعلب المسمى بحب الفنا وهو شجر له حب أحمر فيه نقط  
سود.. يقول زهير:

كان فئات العهن فى كل منزل      نزلن به حب الفنا لم يحطم<sup>(2)</sup>  
والأيهقان وهو الجرجير البرى ..

يقول لبيد فى حديثه عن المطر الذى يصيب كل شيء فى الأطلال:  
فعلا فروع الأيهقان وأطفلت      بالجلهتين ظباؤها ونعامها<sup>(3)</sup>

والثمام وهو نبات هش تسد به الخلل بين أجزاء الخيام.. يقول لبيد  
مصوراً خلاء الأماكن:

عريت وكان بها الجميع فأبكروا      منها وغودر نُؤيها وثامها  
ويقول النابغة الذبياني:

(1) المرجعان السابقان، وأحوى: فى لونه سواد وهى الظبية. المرد: ثمر الأراك. الشادن:  
ولد الظبية، مظاهر: مضاعف. السمط: النظم من السموط. خذول: تخلقت مع ولدها  
عن صواحبه. تراعى: ترعى معه. الربرب: جماعة الظباء أو البقر الوحشية.  
والخميلىة: أرض لبنة ذات شجر. ترتدى: تدخل وسط الأغصان فتكون كالمرتدية بها.  
والمرد بفتح الميم وسكون الراء: ثمر الأراك.

(2) المى: فى شفته سواد، المنور، الأخوان، حر الرمل: النقى منه.

(3) جمهرة أشعار العرب، ص252، وشرح المعلقات السبع، ص237، الأيهقان: بضم  
الهاء وفتحها: الجرجير البرى، الجهلتان: الجانبان.

فما وجدت بها شيئاً ألوذ به إلا الثمام وإلا موقد النار

والأثل وهو شجر ينبت قرب المياه أوراقه دقيقة وأزهاره عنقودية ،  
وخشبه صلب جيد... يقول لبيد أيضاً فى حديثه عن بعد الحمول وعدم  
ظهور معالمها كأنها أجزاء منطقة بيشة وأشجار أثلها وصخورها  
العظيمة وقد أخذ الحدأة يحثونها لتسرع فى السير:

حُفِرَتْ وَزِيلَهَا السَّرَابُ كَأَنَّهَا أَجْزَاعُ بَيْشَةَ أَثْلُهَا وَرِضَامُهَا<sup>(1)</sup>

والسدر أيضاً من أشجار البادية كالأثل والأراك، يقول خدّاش

بن زهير مشبها حبيبته بغزالة تتقى حرارة الشمس بالأراك والسدر:

إذا الشمس كانت رثوةً من حجابِها تَقْتَهَا لِأَطْرَافِ الأَرَاكِ وَبِالسَدْرِ<sup>(2)</sup>

وكذلك أشجار الهضاه ونبات الأرتى والضال..يقول الحطيئة

مشبها امرأة بغزال يتناول أوراق العضاه ويتتبع نبات الأرتى والضال:

تعاطى العضاه إذا طالها وتَقْرُو من النبت أرتى وضالاً<sup>(3)</sup>

وكان أيضاً من الأشجار التى ترعاها الغزلان والأبقار الألاء..

يقول النابغة الذبياني:

يكشفن الألاء مزيّنات بغاب ردينة السحم الطوال<sup>(4)</sup>

وكان من النبات الذى تعلفه الإبل: الفصافص، يقول النابغة فى

حديثه عن الناقة:

وقارفت وهى لم تجرّب وباع لها من الفصافص بالنمى سفسير<sup>(1)</sup>

(1) المرجعان السابقان، وحفرت: حثت، زایلها: فارقها، بيشة: مكان.

(2) جمهرة أشعار العرب، ص414، رتوة: تمد عنقها، تقتها: انتقتها وخدّاش شاعر جاهلى بكسر الخاء وفتح الدال.

(3) جمهرة أشعار العرب، ص657، تعاطى: تمد عنقها، طالها: ارتفع عنها، تقرو: تتبع.

(4) الديوان، ص150، بكشفن: ياكلن، الألاء: شجر واحدته الاءة، غاب ردينة: الرماح شبه قروناه بالرماح طولها وسوادها.

كما نجد إشارة إلى بعض ما كان يجلب فى التجارة إلى أرض الجزيرة من الحبوب الجافة التى تتخذ فى الطعام كحب الفلفل، يقول امرؤ القيس مشبهاً بعمر الظباء فى أطلال الديار المهجورة:

ترى بعمر الآرام فى عرساتها      وقيعانها كأنه حب فلفل (2)  
وكان من الأزهار التى يعرفونها ولها رائحة طيبة "القرنفل"..  
يقول امرؤ القيس فى أم الحويرث وجارتها أم الرباب وما لهما من رائحة طيبة:

إذا قامتا تَضَوَّعَ المسك منهما      نسيم الصَّبَا جاءت برياً القرنفل (3)

.6.

والناقة كانت فى مقدمة الحيوانات التى اهتم بها شعراء الجاهلية وأكثروا الحديث عنها فى مقدمات قصائدهم... يقول ابن رشيح القيروانى فى كتابه "العمدة" (4):

"وكانت دوابهم الإبل لكثرتها وعدم وجود غيرها، ولصبرها على التعب وقلة الماء والعلف فهذا أيضاً خصوصاً بالذكر دون غيرها"  
وفى معلقة امرؤ القيس نجده يشير إلى الناقة عندما وقف بأصحابه على الأطلال، كما يذكر نحرها للعدارى... يقول:

---

(1) الديوان، ص157، والفصافص جمع فصفاصة والنمى بضم النون المشددة والميم المشددة المكسورة الدرهم فيه رصاص، والسفسير: القائم بخدمة الناقة.  
(2) شرح المعلقات السبع، ص34، الخالصة البيضاء، والعرسات جمع عرساة وهى الساحة، والقيعان جمع قاعة وهى الساحة من الدار أيضاً.  
(3) شرح المعلقات السبع، ص34، تَضَوَّعَ: انتشرت رائحته، الريا: الرائحة.  
(4) العمدة، ج1، ص226، ط: دار الجيل للنشر والتوزيع ببلنات تحقيق محمد محبى الدين بعد الحميد.

وقوفا بها صحبى على مطيهم      يقولون لا تهلك أسى وتجمل  
كما يقول:

ويوم عقرت للعدارى مطيتى      فى عجا من كورها المتحمل<sup>(1)</sup>

ولقد وصفها طرفة بن العبد وصفاً بارعاً فى معلقته بعد أن وقف على الأطلال ووصف مراكب معشوقته من بنى مالك... كان فى وصفه لها: الأعضاء كألواح التابوت، تشبه الجمل فى وثاقة الخلق، عظيمة الوجنات، مهزولة خفيفة الجسم من كثرة الأسفار يأمن راكبها عثارها مستوية سريعة كذكر النعام وأنها تسابق نوقاً مسرعات بخطوات منتظمة على طريق معبد، وترعى مع النوق فى رياض معشبة، كما أنها ذكية القلب ترجع إلى راعيها عندما يدعوها وتتقى ضراب الفحل بذنبها ذى الشعر الكثيف الذى يشبه شعره على جانبيه جناحى النسر واقرأ قوله:

لأَمْضى الهم عند احتضاره	بعوجاء مزقال تروح وتغتدي
أْمُونِ كألواح الإران نسائها	على لا حب كأنه ظهر بوجد
جمالية وجناء تردي كانها	سفنجة تبرى لأذعر أريد

تربعت الفُقَيْنِ فى الشول ترتعى	حدائق مَوَلَى الأَسِرَّةِ أُعِيد
تربع إلى صوت المُهيب وتُنقى	بذى خُصَل رَوَعَات أَكلف ملبد

(1) شرح المعلقات السبع، ص32. العذارى: الأبقار. الكلور: الرحل، المتحمل: المحمول على غيرها، يتعجب من نحرها لهن وحملهن للرل واقتسامهن مناعة بينهن.

كأن جناحى مضرخى تكنفا

حِقَافِيَّةِ شِكا في العسيب بمسرد<sup>(1)</sup>

وامتناعها على الفحل يقيها اللقاح فيظل جسمها نشيطاً موفوراً  
ولذلك نجد أن فخذيهما مكتملى اللحم فهما يشبهان مصراعى باب قصر  
عال أملس، كما أن لها فقارا مطوية متراصفة متداخلة كأن الأضلاع  
المتصلة أما مرفقاها فقويان شديدان بأئنان عن جنبها كيدى سقاء  
حمل بيديه دلوين فابتعدت يداها عن جنبه.. الخ.

لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما باب منيف ممرد  
وطى مجال كالحنّى خُلوْفُه وأجرنه لُزْتُ بدأى منضد  
لها مرفقان أفتلان كأنها تمر بسلمى دالج متشدد<sup>(2)</sup>

أما لبيد فإنه يصف الناقة فيشبهها تارة بالأتان الوحشية فيقول:

أو ملمع وسقت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها  
يعلو بها حذب الأكام مسح قد رابه عصيانها ووحامها

وتارة بالبقرة الوحشية.. فيقول:

أفتلك أم وحشية مسبوعة؟ خذلت وهادية الصوار قوامها

(1) شرح المعلقات السبع، ص 95 وما بعدها. عوجاء: لا تسقيم فى سيرها لشدة نشاطها. مرقال: شديدة الإرقال. أمون: يؤمن عثارها. الإران: التابوت العظيم. نساتها: ضربتها بالمنسأة أى العصا. لاحب: طريق واضح. برجد: كساء مخطط. جمالية: تشبه الجمال فى وثاقه الخلق. وحناء: مكتنزة اللحم أو عظيمة الوجنات. تردى: تعدو، سفنجة: نعامة. تبري: تعرض. أزعر: قليل الشعر. أريد: كلون الرماد. عتاق: كريمات. ناحيات: مسرعات. الوظيف: الخف أو الساق. المور: الطريق. تربع: ترجع. روعات: فزعات: أكلف: فحل يميل إلى السواد. ملبد: متلبد الوبر. مضرجي: نسر أبيض.

(2) المرجع السابق، ص 35 النحض: اللحم. منيف: قصر مرتفع. السلم: الدلو. الدالج الذى يأخذ الدلو من البئر فيفرغها فى الحوض. متشدد: قوي.

خنساء ضيعت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها<sup>(1)</sup>

أما النابغة الذبياني فيصنفها في سرعتها وقوتها بالثور الوحشى

السريع الجرى الذى يصرع كلاب الصيد بقريته:

كأن رحلى وقد زال النهار بنا      يوم الجليل على مستأنس وخذ  
من وحش وجرة موشى أكارعه      طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد  
أسرت عليه من الجوزاء سارية      تزجى الشمال عليه جامد البرد  
فأرتاع من صوت كلاب فبات له      طوع الشوامت من خوف ومن صرد  
فبثهن عليه واستمر به      صمع الكعوب بريئات من الحد، برد  
وكان ضمران من حيث يوزعه      طعن المعارك عند المحجر النجد  
شك الفريضة بالمدرى فأنفذها      طعن المبيطر إذ يشفى من العضد  
كأنه خارجا من جنب صفحته      سقود شرب نسوه عند مفتاد  
فظل يعجم أعلى الروق منقبضا      فى حالك اللون صدق غير ذى أود  
لما رأى واشق اقعاص صاحبه      ولا سبيل إلى عقل ولا قود  
قالت له النفس إنى لا أرى طمعا      وإن مولاك لم يسلم ولم يصد<sup>(2)</sup>

(1) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام، ص315. ألمعت الأتان أشرف طيهاها باللين، وسقت: حملت. الأحقب: العير فى وركيه بياض. لاحه: غيره. الكدام: المكادمة من الكدم وهو العض. حذب الأكام: التلال المحدوبة. مسجح: المعضض. الوحام: الوحوم وهو اشتهاه الحامل الشيء. المسبوعة: التى افترس السبع ولدها والهادية المتقدمة. الصوار: القطيع من بقر الوحش. الغرير: ولد البقرة الوحشية. لم يرم: لم يبرح. العرض: الناحية. الشقائق: جمع شقيقة وهى أرض صلبة بين رملين. البغام: صوت رقيق.  
(2) وجد منفرد. وجرة: مكان. أكارعه: قوائمه، موشى: منقط. طاوى: ضامر. المصير: البطن. ارتاع: فرح. الشوامت: القوائم. الصرد: البرد. الكعوب: المفاصل من العظام. صعاء: محددة الأطراف. الحرد: الاسترخاء. ضمران: اسم كلب. المحجر: الملجأ. النجد: الشجاع. العضد: داء يصيب العضد. المفتاد: موضع النار. يعجم: يعض. الروق: القرن. واشق: اسم كلب. المولى: صاحب.

وكما نرى تلك الأبيات، شبه النابغة ناقته بثور وحشى يخاف  
الناس فينظر يمناً ويسرة وهو ينتمى إلى مكان مشهور تجتمع فيه  
الوحوش وأنه منقط القوائم بينما بطنه أبيض شديد البياض كأنه سيف  
الصيقل وإلى جانب هذا البياض فإنه ضامر جداً، هطلت عليه أمطار  
الشتاء، وأفزعه صوت صائد أطلق عليه كلابه فلاذ بالفرار وأعانتة  
على الجرى قوائم قوية محددة الأطراف، ولقد لاحق أحد هذه الكلاب  
ويسمى " ضمران " الثور بجرأة وشجاعة فكان فى ذلك عند حسن ظن  
صاحبه، فاتجه إليه الثور وطعنه بقرنه فى فريسته فأنفذه فيها كما  
يفعل البيطار بمبضعة عندما ينفذه فى عضد الدابة ليداويها، لقد كان  
القرن الطويل الأسود والكلب معلق به كسفود قوم يشربون الخمر  
ويشوون اللحم وقد تركوا السفود وعليه اللحم بجوار النار. لقد لقى  
الكلب ضمران مصرعه على قرن الثور ولكنه قبل أن يلفظ أنفاسه  
الأخيرة راح يعض أعلى القرن وهو فى شدة الوجد، فما كان من رفيقه  
المسمى " واثقاً " إلا أن ينجو بنفسه فقد مات صاحبه مقتولاً بلا دية ولا  
قصاص فلا أحرز الصيد ولا نجا بنفسه... ومثل هذا الثور كانت الناقة  
فى سرعتها<sup>(1)</sup>.

وفى الأبيات السابقة التى وصفت بها الناقة ورد ذكر النعام،  
والنسر والثور الوحشى، وكلاب الصيد كما ورد فى وصف عنتره  
لسيرها ذكر الهر الوحشى أو السنور، فهى فى تبخترها وسرعتها تتحى

(1) راجع فى ديوان النابغة قصيدة (عوجوا فحيو النعم دمنة الدار) تجد أن الناقة شبهت  
بثور وحشى صرع سبعة كلاب على التوالي.

جانبا الأيمن كأنها تخاف هجوم الهر الوحشى عليها من تلك الجهة  
فهى تتحياها ، وهذا الهر الوحشى شرس عدوانى كلما هاجم الناقة من  
ناحية جنبها الأيمن واتجهت إليه غضبى هجم عليها وخذشها وعضها..  
يقول عنتره:

وكأنما تنأى بجانب دفاها الوحش      ى من هزج العشى مؤوم  
هر جنبى كلما عطفه له      غضبى اتقاها باليدى وبالقم<sup>(1)</sup>

وقد رأينا فيما سبق كيف ورد ذكر الأرام والعين والطلاء  
والجآذر التى ترعى مكان ديار الأحباب المهجورة كقول امرئ القيس:  
ترى بعرا الأرام فى عرصاتها      وقيعانها كأنه حب فلفل  
وقول زهير:

بها العين والأرام يمشين خلفه      وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم  
وقول المرقش الأصغر:

ترجى به خنس الظباء سخالها      جآذرها بالجو ورد وأصبح  
كما جرى ذكر الغراب فى حديث عنتره عن حزنه لفراق أحبابه:  
ظعن الذين فراقهم أتوقع      وجرى بينهم الغراب الأبقع  
والحمام أيضا كان من بين الطيور التى نكرها عنتره:

أفمن بكاء حمامة فى أىكة      ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل<sup>(2)</sup>  
وقوله فى موطن آخر:

(1) شرح المعلقات السبع، ص244. الدف: الجنب. الجانب الوحشى: اليمين وسمى كذلك  
لأنه لا يركب من ذلك الجانب ولا ينزل، الهزج: الصوت. المؤوم: القبيح الرأس  
العظيمة. هر جنبى: أى مجنوب ومقود إليها. اتقاها: استقبلها والعين: الأبقار ذات  
الأعين الواسعة الجميلة والأطلاء جمع طلاء وهو ولد البقرة أو الغزال.  
(2) ديوان عنتره، ص56 والأىكة واحدة الأىك وهو الشجر الملقب الكثير والمحمل شقان  
على البعير يحمل فيهما العديلان.

ومسكن أهلها من بطن جزع تبيض به مصاييف الحمام (1)

وقوله:

ولقد ناح في الغصون حمام فشجاني حنيه والنحيب

بات يشكو فراق ألف بعيد وينادي: أنا الوحيد الغريب

يا حمام الغصون لو كنت مثي عاشقا لم يرقك غصن رطيب (2)

كما يقول النابغة في الأطلال:

أسألها وقد سفحت دموعي كأن مفيضهن غروب شن

بكاء حمامة تدعو هديلا مفعجة على فئن تُغنى (3)

كما أن النمر بن تولب وهو شاعر جاهلي عاش حتى أدرك الإسلام.

يذكر الذئب خلال حديثه عن أطلال " عمرة " :

وكم دونها من ركن طود ومهمه وماء على أطرافه الذئب يعسل (5)

## . 7 .

ونستطيع أن نقف على كثير من عادات الجاهليين وتقاليدهم في

كثير من مواقف الحياة المختلفة من خلال قراءتنا لأشعار الوقوف على

الأطلال التي نحن بصدد الحديث عنها.. وأول تلك العادات والتقاليد التي

كانت تشكل عنصراً جوهرياً في حياة أهل البادية الحل والارتحال وتتبع

(1) المرجع السابق، ص 65 والجزع منعطف الوادي أو مكان بعينه، المصاييف: التي نتجت في الصيف الواحد مصاييف.

(2) المرجع السابق، ص 100.

(3) ديوان النابغة، ص 122، الهديل: زعموا أنه ذكر للحمام كان على عهد نوح ففقدته أُنثاه فبكته.

(4) جمهرة أشعار العرب، ص 421 والطور: الجبل والمهمة: البرية والعسلان: سير الذئب.

منايب الكلاً ومساقط الغيث ومن أجله كانت تزم الأحمال على الجمال  
وتركب النساء داخل هودج، لكل فتاة هودج مستقل تحمله ناقة بدليل  
قول امرؤ القيس:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة      فقالت لك الويلات إنك مرجلي  
فالهودج إذن لم يكن معداً لأكثر من شخص واحد:

تقول وقد مال الغبيط بنا معا      عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل  
والهودج يتكون من عصى تتصب بطريقة خاصة وتلقى فوقها  
أستار تقى من بداخله حرارة الشمس.. يقول لبيد:

شافتك ظعن الحى حين تحملوا      فتنكسوا قطناً تصر خيامها  
من كل محفوف يظل عصيّه      زوج عليه كِلَةٌ وَقِرَامُهَا<sup>(1)</sup>

يقول لنفسه لقد أهاجت أشواقك رؤية الحمل على ظهور الجمال  
وقد اجتمعت النساء داخل هودج عليها أستار القطن وقد أدى تحرك  
الإبل السريعة بها إلى حدوث صرير ينبعث من تلك الأستار والكلل التى  
غطت عصى الهودج.

وهذه الهودج عندما تسير بها الإبل تبدو من بعيد كالسفن التى  
تتهادى على صفحة الماء معتدلة مستوية تارة، وغير مستوية على الطريق  
المعتدل تارة أخرى.. يقول طرفة:

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد

(1) معلقة لبيد: شرح المعلمات السبع، ص165 شافتك اهاجت شوقك. ظعن الحى جمع  
ظعون وهو البعير عليه هودج فيه امرأة. تكنسوا: دخلوا الكناس واستكنوا به على  
سبيل الاستعارة وتكنسوا قطناً أى هودج مغطاة بستائر من القطن: تصر خيامها:  
تحدثاً صوتاً بسبب إسراع الإبل والحفوف الهودج حف بالاستائر. عصيه: عيدانه.  
الزوج: نمط من الثياب. الكلة: الستر الرقيق وكذلك القوام.

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدي<sup>(1)</sup>

والستائر الملقاة على الهوادج مختلفة الألوان تارة تكون حمراء كلون  
الدم.. يقول زهير:

علون بأنماطٍ عتاقٍ وكَلَّةٍ وراِدٍ حواشيها مشاكِهَةٌ الدم<sup>(2)</sup>  
وأحياناً تكون متعددة الألوان: سوداء وحمراء وخضراء فيخيل  
إلى رائيها من بعيد أنها سفن مقيرة أو حدائق دوم أو نخيل لها بسر أحمر..  
يقول امرؤ القيس:

فشبهتهم في الأل لما تكمشوا حدائق دوم أو سفينا مقـيـراً  
أو المكروعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللائي يلين المشقرا

سوامق جبار أثيث فروعـهُ وعالين قنوانا من البسر أحمر<sup>(3)</sup>

والنساء المرتحلات كن يتضمخن بالطيب ويجلسن داخل الهوادج  
على حشايا طرية تقيهن خشونة الرحل.. يقول امرؤ القيس:

جعلن حوايا واقتعدن قعاندا وحففن من حوكِ العراق المنق  
وفوق الحوايا غزلةً وجآذر تضمخن من مسك ذكى وزنبق<sup>(4)</sup>

ويبد أن النسوة فى ظعنهن وإقامتهن كن يمضين أوقاتهن فى

(1) شرح المعلقات السبع، ص 92 والحدوج جمع حدج وهو الهودج والمالكية امرأة من  
بنى مالك والخلايا: السفن العظيمة، والسفين جمع سفينة. والنواصف جمع ناصفة  
وهى أماكن تتسع من نواحي الأودية. عدولية لنسبة إلى عدولى من أهل البحرين  
وكذلك ابن يامن. الجور: الميل عن الطريق. طورا: تارة.

(2) شرح المعلقات السبع، ص 137، علون: بأنماط البناء للتعديبة أى علتها الخ أنماط:  
بسط من الثياب. عتاق: كرام. كلة: ستر. حواشيها: نواحيها. مشاكهة: مشابهة.

(3) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، ص 240.

(4) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، ص 254.

غزل الصوف، وبطبيعة الحال كانت تتناثر منهن فتاتات عهن صغيرة فى المكان الذى ينزلن فيه، فإذا كانت هذه الفتاتات من صوف مسبوغ باللون الأحمر فإنها تبدو كحب عنب الثعلب الذى لم يحطم فيضيع لونه يقول زهير:

كأن فتات العهن فى كل منزل      نزلن به حب الفنا لم يحطم

- 8 -

والكتابة كانت شيئاً نادراً بالنسبة لعرب الجاهلية، وبخاصة هؤلاء البدو الذين يقضون أيام أعمارهم فى الحل والترحل، فإذا رأوا أحد الكاتبين الذين أتاحت لهم ظروف تعلم الكتابة بطريقة أو بأخرى أثارت خطوطه المستقيمة والمتعرجة الواضحة والباهتة أخيلتهم ونقشت فيها فلم تبرحها، وكان إعجابهم بالكتاب يجعلهم يصفونهم بأنهم ينقشون وينمقون، كما لم تبرح أخيلتهم هذه الأدوات البدائية التى يستعملها الكاتبون من جلود وحجارة أو قطع نسيج هبئت لذلك، وعندما كانت تقع أعينهم على آثار الديار وأطلالها، وهى عبارة عن أرض منبسطة من الرمال بها آثار وخطوط وأشياء متفرقة منها ما هو ظاهر ومنها ما هو مطمور ومنها ما يكون من بعيد خطوطاً متعرجة أو مستوية، فإن الذى يقفز إلى أذهانهم فوراً صورة تلك الخطوط الغامضة التى يرسمها الكاتبون على تلك الأشياء المستوية بين أيديهم.

يقول المرقش الأكبر مشبها آثار الديار بالكتابة على الأديم (الجلد):

الدار قفر والرسوم كما      رقى فى ظهر الأديم قلم

ويقول زهير مشبها الآثار بالكتابة على الحجارة التى كانوا يسمونها

"الوحى":

لمن ظلل كالوحى عاف منازلها عفا الرس منه فالرسييس فعاقله

ويقول:

لمن الديار غشيتها بالفدقد كالوحى فى حجر المسيل المخلد

ومنهم من كان يطلق لفظ الكتاب على الشيء المكتوب مطلقا.. يقول عبيد بن الأبرص:

لمن الدار أقفرت بالجنا بغير نوى ودمنة كالكتاب

وقد يكتبون على قطعة قماش تطلّى بشيء ثم تصقل فيسمونها ثم يقول: واللّه ما محمد بأحسن حديثاً منى وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها<sup>(1)</sup> وفى ذلك نزل قوله - تعالى -: "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا.... الخ"<sup>(2)</sup>.

ولقد اشتهرت الطائف وقبيلة ثقيف خاصة بالكتابة وإتقانها منذ الجاهلية وهذا ما دعا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - " أن يجعل كتبة المصحف من قريش وثقيف، ودعا عثمان - رضى الله عنه - إلى أن يقول: اجعلوا المملى من هذيل والكتاب من ثقيف"<sup>(3)</sup>.

أما أهل البادية الذين كان الحل والترحال سمة مميزة لحياتهم فإنهم لم يكونوا يعرفون الكتابة أصلاً أو لم يكن يعرفها منهم إلا قلة نادرة ممن أتاحت لهم ظروف حياتهم المضطربة المتقلبة أن يلتقوا بمن يعلمهم الكتابة.

(1) سيرة ابن هشام، ج1، ص383. راجع الديوان، ص21.

(2) سورة الفرقان، جزء من الآية: 5.

(3) مصادر الشعر الجاهلى، ص50 - 100.

ولقد كانت الكتابة فى الجاهلية لأغراض مختلفة، مثل كتابة العهود والمواثيق والأحلاف التى يرتبطون بها فيما بينهم أفراداً وجماعات كحلف ذى المجاز بين بكر وتغلب الذى أشار إليه الحارث بن حلزة اليشكرى بقوله فى معلقته :

واذكروا حلف ذى المجاز وما قُدم فيه العهود والكُفلاء .  
حذر الجور والتعدى وهل ينقض ما فى المهارق الأهواء<sup>(1)</sup> .

ونحن نعرف صحيفة قريش التى تعاقدوا فيها على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينحكوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ثم تعاقدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم<sup>(2)</sup> .  
ومما كانوا يكتبونه أيضاً الكتب الدينية التى كان يكتبها اليهود والنصارى ومن أخذ عنهم من العرب ونحن نعرف أن ورقة بن نوفل " كان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل ما شاء أن يكتب"<sup>(3)</sup> .

وفى حديث سويد بن الصامت أنه قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "لعل الذى معك مثل الذى معى فقال - صلى الله عليه وسلم - :  
"وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان - يريد كتاباً فيه حكمة لقمان -  
فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "اعرضها على فعرضها فقال

(1) مصادر الشعر الجاهلى، ص65.

(2) المرجع السابق، ص66 وسيرة ابن هشام، ج1، ص375.

(3) مصادر الشعر الجاهلى، ص61.

له: إن هذا لكلام حسن والذي معى أفضل من هذا. قرآن أنزله الله -  
تعالى -، وهو هدى ونور<sup>(1)</sup> وهذه الكتابات الدينية كانت تسمى "زبراً"  
ومفردتها زيور ومنه قول امرؤ القيس:

أت حجاج بعدى عليها فأصبحت كخط زيور فى مصاحف رهبان  
كما كانت تكتب فى رقاع القماش المطلية المصقولة المعروفة  
باسم "المهارق" .. كقول الأسود بن يعفر:

سطور يهوديين فى مهرقيهما مجيدين من تيماء أو أهل مدين  
هذه المهارق عرفها العرب من الفرس، وعنهم أخذوها.. يقول  
الحارث بن حلزة:

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس  
ومما كانوا يكتبونه أيضاً "صحف المداينات" التى يسجلون  
فيها ديون بعضهم على بعض حتى لا تضيع أو تنكر، وعند كتابتها  
يحضرون كاتباً معه قلم ودواة وصحيفة ويملون عليه ما يكتبه، وعن  
مثل هذه المكاتبات يقول أبو ذؤيب الهذلى وهو شاعر مخضرم عاش فى  
الجاهلية وأدرك الإسلام، فى وصف كاتب من اليمن يكتب دَيْئُهُ على  
رجل آخر يثى عليه الناس بالوفاء:

عرفت الديار كرقم الدواة	يزيره الكاتب الحميري
برقم ووشى كما زخرفت	بميشمها المزدهاة الهدى
أدان وأنبأه الأولين	إن المدان الملى الوفي
فتمنم فى صحف كالرباط	فيهن أرث كتاب محى

(1) المرجع السابق، وسيرة ابن هشام، ج2، ص68.

## . 9 .

وعندما نتمعن فى الشعر الجاهلى الخاص بالأطلال نخرج  
بفكرة عن تقليد متفق عليه بين الشعراء وهو أن الشاعر يقف على  
الأطلال راكباً ناقته دون أن ينزل أو يحط رحاله ، وعندما يريد ذكرها  
أو الحديث عنها فإنه بين أمرين:

إما أن تكون الأطلال التى يريد أن يذكرها ويقف عندها على  
سنن الطريق وفى هذه الحالة يقف مباشرة ويخاطب من معه بقوله قف أو  
قفا أو قفوا.. كقول امرئ القيس:

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل  
وأما أن تكون هذه الأطلال بعيدة عن الطريق يحتاج من يريد الوقوف  
بها أن يعرج عليها ويميل عن سنن الطريق وعندئذ نجد الشاعر يقول: عوجا -  
أو عوجوا.. كقول النابغة الذبياني:

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار  
لذلك وجدنا النقاد فيما بعد يعيبون على من يخالف هذا النهج  
كأخذهم على كثير عزة قوله:

خيلى هذا ريع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت  
فالقلوص لا تعقل إلا إذا نزل راكبها<sup>(1)</sup> .

وقد كانت هذه وقفة قصيرة مع خصائص شعر الأطلال فى القصيدة

(1) هامش، ص193: الأدب المقارن للدكتور/ محمد غنيمي هلال.

الجاهلية، ولمزيد من التفصيل. (2)

---

(2) انظر في ذلك: الوقوف على الأطلال للدكتور/ أحمد أحمد منصور، الطبعة الأولى، 1407هـ - 1987م.